فاطمة بنت محمّد
صلى الله عليه وسلم

تأليف

عمر أبو النصر

الطبعة الاولى

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م

المكتبة الأهلية
في بيروت
للطبع والترجمة والتأليف والنشر

المطبعة الوطنية — بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كنت اعلم ان موضوعي صعب ، وانـه سيقتدبني كداً واعنات ذهن ، و كنت اعلم اني ساطوي كتب التاريخ والسيرة طياً في بحثه وتحقيقه ، واني لن اوفق فيه إلا بعد عنـاء وتعب كثيرين .

فلما طلع خاطري ، دلفت اليه ؛ اعرض لموضوعاته واسانيده ، فاذا ما كتبت السيرة عن فاطمة بنت محمد صلوات الله عليها ، لا يـكاد يضطرب في غير الاسطر القليلة ، واذا البحث شديد الخطورة بعيد الشقة ، ملتوي السبل ، واذا بي اجد ان احداً من مؤرخينا لم يعن بالابانة عن حياة فاطمة وتاريخها ، واخبارها وحوادثها ، يسوي لنا كلاً منها واضح المعالم ، محبوك الحدود

وبحسب القارئ ، ما عرض له المؤرخون من اخبار الزهراء ، وبحسبه ان يحاول التعرف على تاريخها وحياتها واخبارها وزواجهـا فوفاتها ، ليتعرف على الوان من المتناقضـات ، وليقع كما وقعت على

شتى المذاهب، ومختلف الاخبار ، هذا الى ندرتها وقلتها، واضطرابها
واختلافها، مما لا يستطيع معه المؤرخ المعاصر سيراً ولا تأليفاً ،ومما
يدهش ويشجي ويسيء ، لانه كان من الحق ان يؤرخ الاقدمون
للزهراء كما ارخوا لغيرها ، وان يحاولوا التبيان عن حياتها كما ابانوا
عن سواها،وان كان هذا فوق الطاقة والامكان ، لان الاقدمين لم
يكونوا يعرضون للحياة العامة ، عند الافراد والجماعات الا بمقدار،
ولا كانوا يتناولون الوان الحياة عند الجماعات ومشاهير الرجال الا
اذا اتصلت بالحرب ، وامتدت منها الى الوان الخصومة والعدوان ،
ومختلف اطراف العبث والمرح وغير ذلك ، واما الناس وحالاتهم
والجماعات واغراضهم، وما يتصل مع هذا ويتعلق به من حياة المدينة
وحياة الجماعة ، و كيف كان الناس يعيشون ويأ كلون ويشربون
ويضحكون ويبسمون ويمشون ويتاجرون ، فان هذه من الامور
التي لم يعرض لها المؤرخون السابقون الا بمقدار ، ذلك ان التأريخ
عندهم كان يجب ان لا يعرض لغير جماعة السلطان القائم، وما
يضطرب حوله من انصار واعوان وخدم وحشم .

***

والواقع ان تاريخ الزهراء قد افلت من الناس الا اقلهم ،
وليس يصل اليه ويتحراه الا الذين اتيحت لهم ثقافة وسيعة،وانتهت
اليهم مطالعات عميقــة في التاريخ الاسلامي القديم ، واذا التمست

هؤلاء الذين يقرأون السيرة ، ويطوون اخبارها ، ويلمون بفصولها ومابين حواشيها، وجدتهم قلة ، وقد لا تظفر على واحد منهم الا بعد جهد ومشقة ، وبعد عناء ونكر ، ولعل مرد ذلك صعوبة البحث ، واختلاف الاخبار ، وندرة الاقوال ، وهو ما لا ينصرف اليه الا من يطيقونه ، ومن يطيقونه قليل .

واذا اضفنا الى هذا توفر الناشئين والمتأدبين على مطالعة ما يساوق مقتضيات المدنية الحاضرة ، من سهولة لفظ ، وحسن مخرج ، ولذة ومتاع ، وتباعدهم عن التاريخ القديم وما فيه من عسر ونكر ونكد ، خصوصاً وان الوصول اليه لا يكون الا بالاطمئنان الى قراءة الاسانيد المطولة والاخبار التي يلتوي بها الاستطراد ، وتجور بها لغتها القديمة عن سبيل الفهم السهل ، والذوق الهين ، وجدنا لكل هؤلاء عذراً ، ورأينا فيما تكلفناه لهم من فصول هذا الكتاب وجهاً مقبولا ، وذهبنا مطمئنين الى اننا قد توفرنا على اخراج هذا الكتاب خير مخرج ، واننا فيما نحوناه فيه من جدة ، وخططناه من سبل ، قد عرضنا لتاريخ فاطمة صلوات الله عليها عرضاً جديداً نظن انه سيلاقي عند جمهرة القراء والمتأدبين الاقبال، الذي يستحقه هذا العناء الذي صرفناه ، حتى اطمأنت لنا هذه الصفحات ، تحمل الى قرائها لذة ومتاعاً ، والهاماً ووحيا ، وتسبغ على فجر الاسلام جواً جديداً ساذجاً رائعاً جميلاً طاهراً ، يحفز شبابنا المتأدبين على النفاذ

اليه ، والبحث عنه ، يلتمسون فيه المتاع الفني الذي اظن حقاً انهم يجدونه ويسرون به كل السرور .

واذا استطاع كتابي هـذا ان يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الاسلامية الاولى ، ويلفتهم الى ما كانت تستمتع به من سذاجة ويسر وجمال ، ليسوا بواجديه في هذه الحياة المضطربة الحائرة الحاضرة ، فاني اكون سعيداً حقاً ، موفق في ما تخيرت من فصول ، وتكلفت من موضوعات .

***

ولقد عرضت في كتابي هذا لاقوال المستشرقين خصوصاً الاب لامنس العالم اليسوعي المشهور ، في ابحاثه عن الاسلام والدين الاسلامي ، فاظهرت الخطل الذي يعتصم به هؤلاء المستشرقين ، في بحوثهم واساطيرهم ، ونفضت آراء لامنس فحللتها ونقدتهـا ، واظهرت بطلانها وفسادها ، وعقدت في اواخر الكتاب فصـلاً شرحت فيه اساليب المستشرقين في النقد والتأريخ ، وكيف انهم يأخذون من السيرة ما يوافق اهوائهم وغاياتهم ، وينكرون منهـا ما لا يوافق هذه الاهواء والاغراض ، غير ناكر ان هناك من المستشرقين من لا يجور ولا يضلل ، ولكنه قليل العدد ، خفيض الصوت ؛ ثم ما ذهبت اليه من الاستطراد الى ان اكثر المستشرقين لا يفهم الذهنية الاسلامية ، ولا يتفهم خطورة هذا الحدث الديني

الذي نشأ في الجزيرة العربية ، فبدلها وخلقها خلقاً جديداً، واستطار منها الى المعمور كله ، يبسط فيه سلطانه ، ويخضعه لعاداته ودينه وتقاليده ولغته .

ولست احاول تبيان الصعوبات التي اعترضت طريقي وانا ابحث حياة الزهراء ، ولا خطورة البحث وخطره ، وما يحتاجه من لباقة وحسن تصريف ليساير التأريخ ، وليستقر على الحقيقة الضائعة بين مختلف المذاهب ، وتعدد الاخبار ، فان قارىء الكتاب سيجد من ذلك شيئاً رحباً عريضاً . ولست لانكر ما وسعته على نفسي في رواية الاخبار ، وارسال القصص ، احاول في ذلك اخراج هذا الكتاب في قالب سائغ فيه متعة وفيه فائدة وفيه تاريخ حقيقي للزهراء وحياتها وعصرها ، ولكني الى ذلك كله ، قد التزمت التقيد في ما يتصل بشخص رسول الله والزهراء بما التزمه المتقدمون من اصحاب السيرة والحديث ، ورجال الرواية وعلماء الدين ، لم افرط في اخبارهم ، لو انورع عن اقتباسها بمستنداتها ما كان الى ذلك سبيل

***

وبعد فليس يسعني ان اختم كلمتي هذه دون ان ابوح بما احاوله من اهداء كتابي هذا الى شقيقتي الصغيرة التي تحمل اسم فاطمة الزهراء ، على ان يكون هذا الاهداء رمزاً يتصل منها الى كل فتيات

العرب في مشارق الارض ومغاربها ؛ وكل املي ان يصادف هذا الاهداء هوى في قلوبهن، وان يصل الى مواطن الفضيلة والتضحية منهن ، وان يحفزهن على التشبه بالزهراء في فضلها وسماحتها وكرمها ورعايتها لبيتها، ورقتها وتضحيتها وحبها لرسول الله والمسلمين

ولعمري لقد طويت في هذا الكتاب لسيدات العرب المسلمين صفحة مقدسة من تاريخ النبوة والاسلام ، فيها عظة وفيها عبرة وفيه جلال ومتاع وجمال ، وفيها ما شاء الله ان يكون من جميل الادب، ورفيع الخلق، وروائع التضحية ، ومحاسن الطهر والحكمة والفضل ، واني قد رحت اخلق لهن شيئاً منظوراً ؛ لم يكن لهن به عهد ولا معرفة ، وان من حق سيدات الاسلام على هذه البلاد العربية ان يقدمن اليها شباباً يلتمع النبل في اعطافهم ، وتتجلى التضحية في اغراضهم، وبسيل الاخلاص في افعالهم ، وهو واجب ارجو ان يكون لي بعض النصيب في الترويج له وتحقيقه، فان هذا البناء الجديد للعربية المقبلة لن يتم والنساء متخلفات في بيوتهن ، قاعدات في منازلهن؛ لا يسوّين لهذا الجيل المقبل رجالا، ولا يخلقن في هؤلاء الرجال جرأة وافعالا واعمالا .

***

والواقع ان المشتغل بدراسة التاريخ المعاصر ؛ وان كان يدرك مزالق الاقيسة في الآراء الحديثة ، لا يسعه ان ينكر ثبات

الدين الاسلامي ورسوخ عقائده في ابنائه ، وتقدمه المتواصل ، ونجاحه الهائل ، وتبسطه في كل صقع ومصر ، وسهولة تعاليمه ، وبساطتها ، وتقبل الجماعات الوثنية له بحرارة وشغف ، مما يثير عجب المبشرين وغير المبشرين الاوربيين ، ومما يعد حدثاً رائعاً فريداً ليس يجاري الاسلام فيه دين ، ولا تساوقه الى مثله عقيدة روحانية اخرى .

وليس ينكر المؤرخون المعاصرون المخلصون ان الاسلام يقف اليوم ثابتاً في وجه الوطنية الاوربية المتطرفة ، كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية ، وانه بذلك دين سلام وأمن وطمأنينة ، واداة صالحة قوية لتوثيق الحضارة المعاصرة واستبحارها وانتشارها ، وقد عرض الاستاذ ماسينيون (المحاضر في جامعة السوربون) الى هذه الظاهرة الخطيرة فقال :

« يمتاز الاسلام بانه يمثل فكرة مساواة صحيحة ، بمساهمة كل افراد الشعب بالعشر من موارد الجماعة ، ومبادىء الاسلام تنبذ التبادل الذي لا يفيد ، كما تناويء بالعداء الاموال المصرفية — الرباء — والقروض الحكومية ، والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، في حين انه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورؤوس الاموال التجارية ، فهو لذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية »

وهو الى ذلك كله الدين الوحيد القادر على التوفيق ، بين الجماعات المختلفة العناصر والاغراض ، تخلق فيها جواً اخوياً كله سلام وامان ٠

هذا هو الاسلام وهذه دعوته ، وهي دعوة ليس اضر منها لثبات الحضارة الحاضرة، ولا انفع منها في تغذيتها وتقويتها وتبسطها ودوامها ، وقيام الشباب المسلم في الترويج لهذه الظاهرة واجب ليس ابعد منه اثراً ، ولا اخطار مصاير ، وما نظن الحضارة باقية ثابتة، الا ان يدعمها الاسلام، بما يضطرب فيه من اعتدال بين الوطنية الثائرة والشيوعية الجارفة ٠

***

وكذلك سيجد شباب اليوم في هذا الكتاب الجديد، وفي الكتب السالفة ، وفي المؤلفات المقبلة، التي تعني المكتبة الاهلية بنشرها وذيوعها وانتشارها ، والتي تحاول فيها ان نعرض لتاريخ الاسلام والعرب عرضاً صحيحاً رائعاً ، انهم مجبرون حتماً ان يقفوا حيال تاريخهم القديم، يقرعون ابوابه الضخمة ، ويلتمسون في اخباره ووقائعه واحداثه ما فاتهم من اخبار الابطال وسير العظماء ،وسيقعون فيما يقرأونه من اخبار ووقائع ، على حديث اولئك المساعير من اجدادهم الذين ماتوا في سبيل الاسلام والعرب ، فاحتوتهم كل رقعة ماجدة من الارض ، وفيأتهم الظلال الندية في اليرموك والقادسية

ودمشق والقاهرة وغرناطة، يوم كانوا يمشون في الارض ضاحكين باسمين مسرعين زاحفين ، فيمشي النصر في ركابهم ، وتسير الدنيا من خلفهم ومن قدامهم

سيعلمون حين يقرأون هذه الاخبار ، ان عليهم واجباً عظيماً، وان امامهم هذه السالفات الرائعة من الاعوام يعيدونها امراً منظوراً، ويسيرونها بين الناس شيئاً واقعاً

بيروت ذي القعدة ١٣٥٣
شباط ١٩٣٥



مصادر الكتاب

التاريخ	المؤلف
القرآن الكريم	
تاريخ الامم والملوك	الطبري
الكامل	ابن الاثير
مروج الذهب	المسعودي
الفخري	ابن الطقطي
الاغاني	ابو الفرج الاصبهاني
العقد الفريد	ابن عبد ربه
تيسير الوصول	الشيباني
مسند حنبل	
صحيح البخاري	
انساب الاشراف	البلاذري
مقاتل الطالبيين	ابو الفرج الاصبهاني
تاريخ الخميس	
« ابن عساكر	
اسد الغابة	ابن الاثير
طبقات ابن سعد	
تاريخ الخلفاء الراشدين	النجار
محاضرات تاريخ الدول الاسلامية	الخضري
المرأة العربية	عبد الله عفيفي
على هامش السيرة	طه حسين
الامامة والسياسة	ابن قتيبة

التاريخ	المؤلف
سيرة ابن هشام	
السيرة الحلبية	الحلبي
غريب الحديث	ابو عبيدة
تاريخ اليعقوبي	
الخطط	المقريزي
ابن جرير	
الاصابة	
كتاب المعارف	ابن قتيبة
منتخب الكنوز	
فتوح الشام طبعة فون كريمر	الواقدي
الفصول المهمة	
منهاج السنة النبوية	ابن تيمية
سبط ابن الجوزي	
ينابيع المودة	
كشف الغمة	
الاستيعاب	ابن عبد البر
سنن ابن ماجة	
محمد صلى الله عليه وسلم	محمد رضا
كتاب المختصر في اخبار البشر	ابو الفدا
الكامل	المبرد
حاضر العالم الاسلامي	الامير شكيب ارسلان
نهج البلاغة	شرح ابن ابي الحديد
فجر الاسلام	محمد امين

بعض الكتب الاجنبية

التاريخ	المؤلف
فاطمة وبنات محمد	لامنس
هل كان محمد صادقاً	لامنس
مهد الاسلام	لامنس
تاريخ العرب	كلمان هوار
علامات محمد	الاب باردو
حياة محمد	سبر نغر
مباحث شرقية	دوغوبه
محمد	غريمه
«	درمنغهام
«	للسير موير
مسلمو الاندلس	دوزي
محمد نبي الاسلام	دينه وبامر
محمد وانتهاء العالم	كازانوفا
التطورات الاولى للاسلام	مرغليوث
المحمدية	«
ايام الاسلام	البرنس كيتاني
الاسلام	مونته
تاريخ المسلمين	جيلان
دائرة المعارف الاسلامية	
« « الانكليزية	

وغيرهم وغيرهم

- ١ -

حوار خديجة

وقفت خديجة بنت خويلد في شرفة منزلها بمكة تطلق نظرها الى هذا الاديم من الارض الممتد امامها ، والذي كان يصل ما بين مكة والشام ، وماحول الشام من امصار ومدائن

و كان النهار قائظاً محرقاً ، والهواء رطباً ثقيلا ، و كانت خديجة قد اخذت تتكلف مثل هذا الموقف لايام خلت ، تستطلع اخبار الركبان عن تجارتها واموالها ، و كانت قد انفذت فتىً اميناً من شباب قريش الى الشام مع غلامها ميسرة للتجارة والاتجار ، وكان هذا الفتى الشاب نبيلاً من اشرف بيوتات قريش ، واعلاها مقاماً واسماها شرفاً ، ولكنه كان فقيراً معدما ، توفي والده عبد الله قبل ان تلده امه بشهرين ، وتوفيت والدته بعد ان وضعته بست سنوات فكفله جده عبد المطلب فتوفي عنه وهو في التاسعة من عمره ، فكفله عمه ابو طالب وما يزال ... [1]

---

(١) راجع كتابنا (محمد النبي العربي) وقد اخرجته المكتبة الاهلية منذ شهرين

وكان مثل ابي طالب كمثل ابن اخيه محمد فقراً ورقة حال، وكان يجد جهداً عظيماً في اقامة عياله الكثيرين ، فلما ضم اليه اليتيم صلح امره ، وحسنت حاله ، ووجد البركة والسعة فيما كان يتاح له من القليل ، كان يكسب لعياله ما يستطيع ، ثم يجمعهم حوله فلا يستطيعون الا ان يسوه مساً رفيقا ، فلما ضم ابن اخيه اليتيم اليه لم يزد كسبه ، ولكن الله بارك فيه ، فكان يجمع عياله ومعهم يتيمه حول هذا القليل فيصيبون اقله ، ويقومون وقد ذهب عنهم الجوع وما يزال من الطعام بقية .

***

وتعود خديجة الى ماضيات الايام فتذكر هذه الشوائع التي ملأت جو مكة ، واخذت تمتدمنها الى الصحراوات القاحلة ، والجبال الهادئة فتذكر هذا اليتيم الذي راح يتكلف التجارة لها ، وما كان من شأنه وخبره ، ومولده ومنشأه وهو خير كثير

وتذكر كيف تضاحكت مكة ، وفرح كبارها وشبابها وكهولها لما ارتد (ابرهة) بجيشه عنهم ، بعد ان كان يعتزم هدم الكعبة ، وكيف ارسل له الله هذا الطير الغريب الشكل ، الذي صرفه عن امره ، ورده عن غرضه ، وامعن في جيشه تقتيلا وايلاماً وعذاباً ، وكيف ملأ الفخر مكة وغمرها التيه ، لما راحت تطمئن

الى سلامة كعبتها ، وانخذال عدوها وارتداده مدحوراً كاسفا ؟ وكيف ان شيخاً من مكة لم يشغله هذا الفخر ، ولم يفرحه هذا النصر ، ولم يصرفه مرح الناس وحوارهم من حوله ، عن هذا الالم الصامت الذي كان يتسلل الى قلبه ، وكيف ان امرأة من قريش كانت تشارك هذا الشيخ في حزنه وألمه ، فاما الشيخ فكان عبد المطلب بن هاشم سيد قريش ، واما السيدة فكانت آمنة بنت وهب .

لقد كان الشيخ يفكر في فتاه عبد الله ، هذا الذي اراد عبد المطلب تضحيته للآلهة وفاقاً لما سبق له من نذر ، بان يقدم لها احد اولاده ان رزقه الله عشرة منهم ، فلما آتاه الله سؤله ، وتقدم بعبد الله الى الآلهة يريد تضحيته ، انقذه الله من مدية ابيه ، وفداه بمئة من الابل ايثاراً له بالعافية واختصاصاً له بالكرامة ، وكان عبد المطلب يفكر بان الله انما انقذ فتاه واحب بنيه اليه من الموت ، وفاداه بالابل لامر يريده ، ولشأن اقره ، والا ففيم نجاة هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل ؟ أليس غريباً ان ينجو من الموت فيتخذ له زوجاً لا يقيم معها الا وقتاً قصيراً ثم يفارقها كما يفارق الناس ازواجهم ليعود اليها كما يعود الناس الى ازواجهم ، ولكن رفاقه يعودون وهو لا يعود ، وانما يتخلف عنهم في يثرب (المدينة) ليموت عند اخواله من بني النجار ، وقد عرفت زوجه بعد ان ارتحل

عنها انه قد حملها امانة يا زالت تحملها في جوانحها حتى اذا جاء امر الله ادت هذه الامانة ، ومن يدري لعل عبد الله لم يوجد الا ليودع هذه الامانة عند زوجه ، ومن يدري لعل آمنة بنت وهب لم توجد في هذه الدنيا الا لتؤدي هذه الامانة الى الناس

***

وتذكر خديجة كيف كان عبد الله بن عبد المطلب شاباً عظيم القوة رائع الشباب بارع الجمال ، وكيف كان نساء قريش يتعشقنه ، ويتكلفن مودته ويتقدمن اليه بالملاطفة والتجمل ، لعلهن يصبن عنده بعض الرضى والعطف ، وكيف تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب ، وكيف انه ما لبث بعد زواجه هذا ان ذهب للشام في تجارة له ، وبينما الناس يترقبون عودته اذا بهم يستمعون الى خبر مرضه ، وكيف برّح به المرض ، فاذا به هزيل شاحب نحيل مسجى في فراشه عند اخواله ، وكيف ارتج على الناس خبر موته ، وكيف تولى عبد المطلب الم كثير ، وحزن عميق ، واضطراب ظاهر قوي .

واما آمنة زوجه فقد استقبلت الهول الفادح بشيء كثير من الايمان والسكون ، وراحت تنام على الخطب القاصم هادئة مستسلمة ، وقد القي في روعها ان الايام قد وفتها حظها من الغبطة

وقسطها من النعيم ، في هذا الوقت القصير الذي قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء الى ان فقدته يوم الرحيل ، وراحت تحاول ان تسعد بالتفكير في هذا الجنين الذي تحسه يضطرب في احشائها والذي راحت تؤمن مع المؤمنين بانها ما عاشت بعد تزوجها عبدالله الا لتلد هذا الفتى ولتؤدي امانة السماء الى الارض

اما هذه الامانة فكانت محمد بن عبد الله

***

ونعود خديجة تتحدث الى نفسها بولادة هذا الفتى و كيف انها كانت عجيبة حقاً ، لما توفر فيها من عجائب وعظيم الامور ، و كيف راح محمد ينشأ نشأة بدوية ، فتحمله المرضع الى البادية ، وتتوفر الطبيعة على انشائه وتكوينه ، ويعطف الله على هذا اليتيم قلوباً ملئت حباً ، وفاضت حنانا ورحمة ، قلما يظفر بمثلها المنعمون المترفون من ابناء الاغنياء واصحاب الثراء الوسيع والجاه العريض ، فهذه الامة الحبشية التي ورثها اليتيم عن ابيه مع خمسة اجمال وقطعة من الغنم كانت حين اقبل اليتيم الى الارض فتاة في ريعان الشباب ومبتدأ الحياة ، مضطربة قلقة ، لم تألف موطنها الجديد ، ولا تناست وطنها القديم ، ولكنها كانت الى ذلك كله خاضعة مؤمنة مذعنة لم تختر من حياتها هذه شيئاً ، ولا كان باستطاعتها ان تبدل منها حرفاً ؛ قد وطنت النفس على العيش مع ساداتها في شيء كثير من المضض

والقلق ، وفي مثله من الطاعة والخضوع ، وان كانت ابداً كاسفة البال ، لا تبتسم الا لماماً ، ولا ترضى الا غراراً ، ثم هي تشهد ما شهد غيرها من النساء ليلة ولد اليتيم ، فتضطرب نفسها لما رأت ، ويبتهج قلبها الحزين لما شهدت ، ثم لا تكاد ترى هذا الوليد الجديد حتى يلقي الله حبه في قلبها ، وحتى تملأ عواطفها الوان العطف عليه ، وحتى يجعله الله قرة عين لها ، وحتى يصبح وجهه الصغير المضيء ابتسامة حلوة عذبة في حياتها المظلمة ؛ واذا هي تألف الطفل وتكلف به ، واذا هي تؤثره من المحبة والبر ، ومن المودة والعطف ، ومن الحنان والرفق بكل هذه الكنوز التى لا تفنى ، والتي تحتويها قلوب النساء ، تلكم هي بركة حاضنة محمد

واذا هذا اليتيم ينزل من قلبها الحزين منزل السرور ، ومن نفسها الكئيبة منزل الابتهاج ، وانها لتجد فيه كل ما فقدت من امل و كرامة وعزة وحرية ؛ وانها لتريده وتود لو تختص به من دون الناس جميعاً ، وانها لتريد ان تخصه بنفسها من دون الناس جميعاً ، وانها لتقف نفسها على الطفل اياما ، حتى اذا اقبلت المرضع من البادية تنتزعه منها ومن امه انتزاعاً ، ضاقت بالمرضع ذرعاً و كرهت هذا الرحيل ، ولو كان لها ان تنفذ رغباتها لاستبقت الطفل بجانبها ، او رحلت معه الى البادية ، ولكن انى لها ان تصل الى ما ترغب وتريد ، واذا هي تشهق بالبكاء ، واذا هي بعد رحيل الطفل تعود

الى حياتها السالفة من صمت وحزن و كآبة

***

وتمضي الايام فيعود الطفل الى امه ، فترحــل به الى يثرب لتزيره اخواله من بني النجار ، وترحل حاضنة الطفل معها وينعم الطفل بحنان هذين القلبين الكريمين ، حتى اذا بلغ يثرب رأى ارضاً لم يكن رآها ، وابصر اناساً لا عهد له بهم ، هناك رأى الطفل قبر ابيه ، وهناك لعب الطفل مع اطفال مثله سيكونون له – وهو لا يدري – اصداقاً وانصاراً حين يجد الجد ، وحــين يبلغ الكتاب اجله ، وحين يتم في الارض ما قدر في السماء ، حتى اذا قضى الطفل وامه وطراً من زيارة الارض الموعودة ، عاد بين اميه الكريمتين الى موطنه بمكة ، ولكن قضاء الله يجب ان ينفذ ، وحكمة الله يجب ان تبلغ ، وارادة الله يجب ان تكون ، فلا يكاد الطفل يبعد عن يثرب حتى تلم العلة بامه كما ألمت بابيه ، ولا يكاد الطفل ينتهي الى (الابواء) ــ وهي قرية بين المدينة ومكة ــ حتى ينتزع الموت منه امه ، كما انتزع اباه من قبل .

وكذلك ادبت الامانة الى الارض ، وذهب عبد الله بن عبد المطلب ، وذهبت آمنة بنت وهب زوجه ، واصبح الطفل كما اراد الله له ان يكون يتيما ، قد فقد امه وفقد اباه ، وليس له من

بأوبه الا الله ، الذي وعد بايوائه و كفالته وحفظه، وحمايته من مكاره الزمن وعاديات الايام

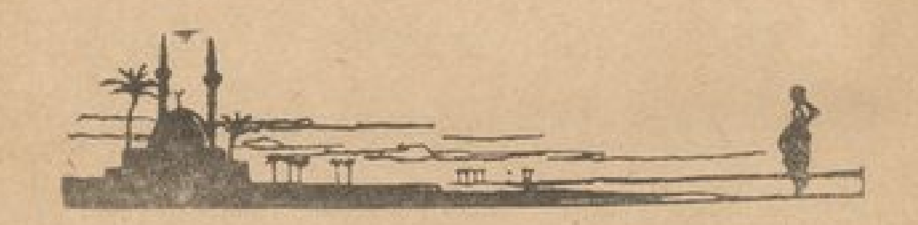
وبذلك خلص الطفل لحاضنته من دون الناس ، فلتقف عليه نفسها كلها ، ولتقف عليه حبها كله ؛ ولتخلص له كما خلص لها ، وانظر اليها نعود بالطفل الى جده واعمامه وحيداً فريداً ، ليس له من يرعاه او يكلؤه الا قلبها العظيم الكريم ، ومن ذلك الوقت اصبحت للطفل اماً رعته صبياً وشاباً ، وراحت تتفرغ لشأنه وامره لا يشغلها عنه شاغل ؛ ولا يملأ قلبها سواه وغيره

***

وينشأ الطفل بين يدي حاضنته هذه وعمه ابي طالب، فيفشو بين الناس حسن خلقه وكرم اعراقه ، وجميل حديثه ، وعظيم جماله ، وكبير امانته ، وبعده عن المرح والعبث وخلوصه من الاشربة ، مما كان شيئاً غريباً في عهده ، وكبيراً جداً على من هو في سنه .

وتستمع خديجة الى حديث الناس عن هذا اليتيم ، وامانته وصدقه ، حتى اذا رأته هشت له ، وسألته في شيء كثير من القلق والاضطراب عما اذا كان لا يرى بأساً في الذهاب الى الشام بتجارة لها على ان تعطيه احسن ما تعطي سواه ، فيرضى محمد بذلك ، ويذهب الى الشام في تجارتها لاشهر خلت ، وكان قد قرب موعد قدومه ،

فكانت خديجة تقف على شرفة منزلها تنظر الى الطريق الذي يصل بين مكة والشام نظرة المشوق الذي ينتظر صديقا بعيداً، قد برّح به بعده، واجهده غيابه [١].



(١) هذا ما قصصناه من حياة اليتيم اول عهده في الحياة وقبل زواجه من خديجة، فمن اراد مزيداً فعليه ان يراجع كتابنا (محمد النبي العربي) الذى اصدرته المكتبة الاهلية منذ اشهر قليلة، فانه خير كتاب عرض لسيرة رسول الله باسلوب جديد طريف

- ٢ -

المرأة العربية قبل الاسلام

نشأت خديجة بنت خويلد في مكة ، وترعرعت بين صحراواتها ومفاوزها ، وتربت بين قوم كانوا يحسون انهم اعظم العرب شأناً ، وامضاهم سيفا ، وابعدهم في المكرمات اثرا.

وقد توفر لمكة من الشرف ما لم يتوفر لغيرها من المدن ، فقد كانت تحج العرب الى كعبتها ، وتستأنس برأي رجالتها ، وتتسابق الى زيارتها ، و كان نظام المجتمع فيها غاية في الديموقراطية ، اقتسم اهلها النظر في الامور العامة فيما بينهم ، وانشأوا داراً دعوها دار الندوة يجتمع فيها الكبراء من اهل مكة للتشاور في شؤون قريش ومصالحها ، ولم يكن يتم امر في مكة الا بموافقة هؤلاء الكبراء ، ولم يكن يتزوج رجل ، او يقرر امر ، او يصار الى حرب اومعاهدة إلا في هذه الدار ، فكانوا والحالة هذه اشبه بحكومة جمهورية لا تضطرب في رئيس معين وزعامة واحدة ، و كان الشرف قد انتهى عندهم الى عشرة رهط من عشرة بطون ، فكان النظر في شؤون مكة من خصائص هذه العشرة من البيوت ، وتراضوا في ما بينهم على ان يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها

وتتصل بحفدته من بعده ، ولسنا ننكر ما في هذا من ارستقراطية ظاهرة ، ولكنها كانت ارستقراطية سهلة ؛ ليس فيها عنف ولا عسف ، ثم انها كانت شيئاً رائعاً جميلاً اذا قيست بهذه البداوة التي كانت تملأ صحراوات العربية في ذلك العهد .

وكان الشرف في مكة ينتهي الى بيوتات عشر : هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وصبح ، وسهم ، وقد تولت هذه البيوتات عشرة مناصب من سقاية ورفادة وسدانة ومشورة وندوة وغيرها ، واما الامور الجزائية التي كان الافراد يختلفون فيها ؛ فتفصل فيها كبار اسرهم وعشائرهم في الغالب على طريقة التحكيم ، ذلك انه لم يكن للقوم شريعة مكتوبة وانما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ، ويقيسون الامور باشباهها .

ولم ينس القوم الضعيف وحقه ، وضرورة العدل في معاملته والنصفة ممن يجور عليه ، فقد تعاقدوا في (حلف الفضول) على ان لا يجدوا في مكة مظلوماً من اهلها وغير اهلها ، الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وقد حضر هذا الحلف محمد ابن عبد الله ، وذكره بعد النبوة واثنى عليه

وكان الدين في مكة شيئاً منكراً فاسداً ، عمد اهلها الى الاصنام فعبدوها وتقربوا منها الى الله زلفى ، وكان في الكعبة

من الاصنام عدد غير قليل ، اما عدد سكانها فلا نظنهم كانوا يضطربون باكثر من خمسة عشر الف نسمة ، اذا اخذنا عدد محاربتهم قياساً وحكما

ويجب ان نضيف الى ذلك كله ما كانت تنعم به مكةمن تجارة رابحة تتصل بينها وبين الشام ، وتصل ما بينها وبين فارس والعراق و كان جل اهلها تجاراً او يكادون، او حماة للتجارة التى تمر بارضهم في طريقها الى الشام وامصار الشام

***

ولقد كان العرب رواد غارات وطلاب ثارات ، و كان الرجل منهم يقتحم الموقعة لا يهمه ايقع الموت عليه ، ام يقع هو على الموت ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتناسى خيال ابنته او زوجه وما عسى ان يصيبهما من بعده من حاجة وهوان، وسبي ومعرة، فكان لذلك محباً للحياة في سبيلها ، مجاهداً الموت لاجلها ، يدفعه عن نفسه ليخلص اليها

وكانت المرأة تشاطر زوجها غدوانه وروحاته ، وحروبه وغزواته ، ومفاخره ومفاشله ، و كانت الى ذلك مثاراً لعاطفته ومدار وجدانه ، هي سر حياته وموته ، وهي مهاج غضبه ومجتلى الفته،ومطلع قصيده وموطن غنائه ، ومنار الهامه ، حتى لقد بلغ من خياله ان جعل لرب الوجود بناتاً كبناته ، وفتيات كفتياته

اما ضن الرجل بابنته وايثاره لها وحرصه عليها ، وتفديته اياها بنفسه وما ملكت يمينه ، فقد بلغ من امره هذا ان كسرى ملك الفرس وسيد ملوك المشرق ، ارسل الى النعمان يبغي مصاهرته ، ولو ان ملكا من اقطاب العالم خطب اليه كسرى ابنته لوثب عن عرشه زهواً واختيالاً بتلك النعمة السائغة ، ولكن النعمان وهو صنيعة كسرى ووكيله واحد امرائه ، ضن بابنته ان تكون قعيدة لاعجمي ايًا كان مكانه وسلطانه ، فرد رسول كسري معتذراً ، فثارت في نفس سيد الفرس نيران الغضب ، وارسل يستقدم اهل العرب اليه .

واحس النعمان بالشر ، فاودع ابنته (حرقة) وما يعتز به من سيوف ودروع (هاني بن قبيصة الشيباني) وذهب الى حيث طرح تحت اقدام الفيلة ، فذهبت بلحمه وعظمه ودمه ، وسوت معالم جسمه بالتراب

واراد كسرى ان يعاود ما بدأ ، فارسل الى هانيء يقتضيه ابنة النعمان ، فما كان نصيب رسوله باجمل من نصيب الاول ، فارسل كسرى فيالقه وجحافله ليوقع الخسف بهؤلاء الاعراب الذين ينكرون عليه احدى بناتهم ؛ فالتحمت فيالق الفرس بفرسان العرب ، وهبت الصحراء تدافع عن حوزتها ، وتذود عن حياضها وكانت الموقعة في ذي قار ، وانحسر القتال ، وقد غلب العرب

الفرس ، وضربوهم ضربة اطارت قلوبهم ، فنكصوا على اعقابهم ، وفزعوا الى ديارهم ، وبذلك اليوم انتصف العرب من العجم ، ومادفعهم الى هذا كله الا المدافعة عن فتاة ، والزود عن بنية

ولم تكن المغالاة بالمرأة وقفاً على اصحاب الشرف والمقامات من العرب ، وانما كان شأن الضعفاء واهل الهون مثل ذلك ، حتى لقد اغرقوا في المحافظة عليها والخوف من خلوص العار اليها ، ووصول الذل لها ، فراحوا يئدونها وهي في الحياة ، ويطمرون عليها التراب طمراً وهي نائحة باكية ، مستوجعة مستعبرة ، حتى كان الاسلام فمحى هذه العادة محواً ، واعاد للمرأة كل حرياتها وزادها مثلها ، وجعلها مساوية للرجل في الحرية والارث وغير ذلك ، بينا كانت المرأة الرومانية في مثل هذا العهد تدين بالعبادة للرجل وتعتده من دون الله الهاً قهاراً .

***

ومن الحق ان نلم في هذا الفصل بما توفر لسيدتين عربيتين من امجاد وفخار في الماضيات من الايام

فاما الاولى فبلقيس ملكة اليمن ؛ واما الثانية فالزباء او (زينب) ملكة تدمر .

وهنالك في صحراء العربية وفوق مشارف الارض ، وافياء الشمر ، ومسايل الماء قامت مدينة مأرب عاصمة اليمن وقبلة اقيالها ،

ومستقر عواهلها

وبين يدي هذه المدينة الغانية امتد سد مأرب ، يسقي بريه الارض ، ويبعث الحياة ، ويفيض من الهناء والرفاء ، على سكان اليمن ، ما استطاعوا معه اقامة حضارة باذخة وعمران موفور.

وقد ورثت بلقيس عرش زوجها وابيها، وما كان لها بهما من حاجة ، فلقد اتخذت لنفسها عرشاً بلغ من ابداع صنعه ، وجميل نسقه ان وصفه الله عز وجل في كتابه وذكره بالعظمة ، فقال : « واوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم »

واقامت بلقيس في ملكها خمسة عشر عاماً بلغت فيها من جلال الصولة وكمال القوة انها حين ركبت الى سليمان صلوات الله عليه سار في ركابها مائة الف من امراء اليمن

اما وفور عقلها ومضاء عزمها ، وسناء منزلتها ، فقد بلغ من امره ان سليمان حين ارسل اليها يؤذنها بدينه ، ويدعوها الى سنته ، كان كل ما كتب اليها : « انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » انها لم تأخذها العزة بالاثم ولم تتسلط عليها الخفة ولم يغمرها الغرور ، ولم ينل من نفسها ان الكتاب لم يحو تكرمة وتبجيلا ، ولم يذهب برشدها ان صاحب الكتاب ليس له في ذات نفسها من بسطة الملك وقوة السلطان ما لها ، بل جمعت كل من يلوذ بطاعتها من الملوك — وكان اولو مشورتها

تلثمائةواثنى عشر من اقيال اليمن — وبرغم كل ما اسلفناه من امر الكتاب احلته محلاً كريماً فقالت :

— (ياايها الملأ اني القى اليّ كتاب كريم)

ثم انثنت اليهم فراحت تزبد :

— (ياايها الملأ افتوني في امري ، ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون)

اما هم فوقفوا دون رأيها ، ونزلوا تحت امرها فقالوا :

« نحن اولو قوة واولو بأس شديد ، والامر اليك فانظري ماذا تأمرين »

هنالك بسطت لهم امر الحرب ، وانها مدعاة لدمار الديار ، ومتلفة البلاد والعباد ، فقالت :

— (ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون)

ثم كشفت لهم عن وجه الرأي فقالت : « واني مرسلة اليهم بهدية » كفيلة بان نصرف ذوي المطامع وتجذب بغاة الدنيا ، فان صرفته عن قصده فهو ملك ولنا من بأسنا وقوتنا ما يثل عرشه ، ويفل ملكه ، وان ردها فقد يكون نبياً يهدينا سواء السبيل

فلما جاءت رسلها سليمان بهديتها التي جمعت من كل شيء اسناه

واتمه قال :

— اتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل انتم بهديتكم تفرحون .

فلما استبانت بلقيس وضح الهدى من سليمان تبدلت بدين آبائها دين الله ، وكان ذلك سبيلاً الى طمس آية المجوسية بين ارجاء اليمن .

وكل هذا يدلك على رجاحة عقل ، وسماحة رأي ، مما لا نجد مثله في الرجال الا قليلا .

***

اما حديث زينب ملكة تدمر ، فليجدنه القارىء مليئاً بالطرافة مغموراً بالاسى ، فقد بسطت زينب سلطانها ونشرت اعلامها على ما بين مجاهل السودان ومعالم انقرة الحاضرة ، من مسالك وممالك وامم وشعوب .

وتقع تدمر في طرف بادية الشام الى الشمال منها ، على مدى مائة وخمسين ميلاً من دمشق ، ومسيرة ايام من الفرات ، وكانت ملتقى القادمين والرائحين بين الشام والعراق ، لذلك كان انتجاع اهل هذا البلد الى ذينك القطرين لا ينقطع ، ومن اجل ذلك جمعوا بين مدينتي الفرس والرومان ، فارهفت لذلك طباعهم

ورقت شمائلهم ، ونفذت افهامهم ؛ وطفقوا يقيمون الابنية ترسخ اصولها في اعماق الارض ، وتناطح مشارفها منازل الافلاك ، وليس هيكل الشمس والقصر الاعظم الذي بلغ الفي ذراع في مثلها الا برهاناً على ما تقدمه ، من استفحال الحضارة ، واستبحار العمران في ارجاء هذه المملكة العربية القديمة

وكانت زينب على فرط جمالها ، وعذوبة منطقها ، وسماحة اسلوبها ، ونفاذ لبها ، وعظمة قلبها ، من اشد الناس بأساً وامضاهم عزماً ، وارسخهم في الحروب قدماً

وكانت اذا وقفت الصفوف ، وأشرعت الرماح ، والتمعت الاسنة ، تتقلد سيفها ، وتعتقل رمحها ، وعلى رأسها خوذة ، ثم تمر بين الصفوف ، فتشعل قلوبهم ناراً ، وعواطفهم جمراً ، ثم تدفعهم الى المعارك ، فلا يمشون الا الى نصر ، ولا يتقلبون الا على فتح ، وبذلك تم لها افتتاح البلاد ، واقتحام المعاقل ، حتى فاجأتها جنود الرومان ، فراحت تحاربهم ، ورجالها يتفرقون عنها ، وينفضون من حولها ، حتى اسلمت لعدوها ، فاخذت الى رومـا اسيرة ، ثم اعيدت الى قومها ، لمكانتها في نفوس قاهريها فعكفت على عزلتها ونسكها حتى ماتت .

***

وكذلك ينتهي هذا الفصل الذي قصصنا فيه شيئاً نظن انه سائغ ، وانه رائع عن حياة المرأة العربية في سابقات الاعوام ، فذهبنا نصور فيه الواناً من حياتها ، واطرافاً من نشأتها وحب العربي لها وفخاره بها ، ومعرته منها ، كما تكلفنا التأريخ لبعض اميرات العربية في عهد الجاهلية ، نجعل من تاريخهن فاتحة ومقدمة للتأريخ لافضل امرأة في الجزيرة العربية ، فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، اشرف سيدة في الاسلام ، واكرم امرأة في الارض والسماء



- ٣ -

خديجة بنت خويلد وتجارتها

انتهى الى خديجة بنت خويلد السيدة العربية الجليلة القدر، الرقيقة الشعور ، الكريمة الخلق ، شرف النسب ، وكرم المحتد وسؤدد القبيل ، وعز العشيرة ، والغنى الوفير ، تتوفر بواسطته على اعالة المعدوم ، واطعام الجائع ؛ وكسوة العاري ، فكانت خديجة في اخلاقها ونسبها وثروتها وحيدة بين قومها ، فريدة بين اترابها .

واما جمالها — وفي هذه السنة التي نعرض فيها الى تاريخها — فقد كان جذاباً مستملحاً ، وكانت خديجة في هذه الفترة التي نتولى الكلام فيها في الاربعين من عمرها ، وكانت قد ادركت اواخر عهد الجاهلية ، وهي تنعم بمكانة سامية بين قومها لجمال خلقها ، وكريم اخلاقها ؛ وكانت تدعى في الجاهلية (بالطاهرة) لطهارة سيرتها ، ونقاء سريرتها ، وخلوصها من اشراك الجهل واوثان الفساد وقد اشتهرت من بين نساء قومها بحصافة العقل وجودة الرأي وطهارة القلب ، فخطبها (عتيق بن عابد) فتزوجته ، ثم مات عنها ، فتزوجت شريفاً من قومها يسمى (ابا هالة) وولدت منه ولداً اسمته (هند) الا انه لم يعش طويلا ؛ ثم مات عنها زوجها الثاني فاعتصمت

في منزلها لوحدها .

و كانت ما تزال في نضارة الشباب ، تحف بها اسباب الرفاهية والعز ، وتقطن داراً انيقة جميلة، وحولها عبيدها وجواريها يتوفرن على العناية بها وخدمتها ، وتكاثر طلابها من وجوه قريش واشرافها فكانت ترفض طلبهم بلطف ، وتعتذر اليهم برقة وادب .

والظاهر انها بعد وفاة زوجها الاول والثاني ، قد راحت تفضل الترمل على التزوج بثالث ، كما انها رأت في المتاجرة والاتجار ، وسيلة للتسلية والانصراف عن التفكير في شؤون الحياة الاخرى ، وقد كان اشتغالها بالتجارة باعثاً على العجب بين قومها ، فان انصراف المرأة لمشاركة الرجل في اعماله ليس غريباً ، ولكنه على كل حال لم يكن شيئاً كثير الوقوع في مكة وفي مثل ذلك الزمن

وكانت مكة كما قدمنا بلداً تجارياً زاهراً ، وكان اهلها يضربون في الارض ينقلون الى ما حولهم من الامصار متاجرهم وما ينبت في ارضهم ، كما انهم كانوا يتاجرون ببضائع الامصار البعيدة ينقلونها الى غيرها وسواها ، او يبيعونها في اسواقهم التي كانوا يقيمونها اياماً معدودات في السنة ، يبيعون فيها ويشترون ، واشهرها سوق عكاظ التي كانت تقوم في اول يوم من ذي القعدة في مكان يقع بين مكة والطائف ، وهناك غيرها من الاسواق مما لا حاجة بنا الى ترديدها وتعدادها .

وكان لسوق عكاظ من خطير الشأن ما حمل النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة ان يبعث الى سوق عكاظ في كل عام بالجمال تحمل البذ والطيب لتباع في سوقها ، وليشرى له بثمنها من جلود الطائف ما هو بحاجة اليه ، وهذا يدلنا على ما كانت تنعم به مكة والطائف والحجاز عامة من تجارة خاصة يحملها تجارها الى البلاد القريبة او البعيدة عنهم ، فتجار الحجاز والحالة هذه لما كانوا يريدون التجارة والاتجار مع الشام او غيرها كانوا يبعثون لها ببضاعة حجازية ومما تخرج ارضهم من نبات ومعادن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي .

اما ما كانت تخرجه ارض الحجاز وتصدره الى الخارج ، فقد كان اكثره من معادن الارض ونباتها مما يصلح للصبغ والدبغ والعقاقير والطيوب ، واذا اضفنا الى ذلك ما كانوا يجففونه من البان الحيوانات ويستخرجونه منها من زبد ، ومن اصواف واوبار وجلود ، وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما نجد امامنا تجارة حسنة ، وتجارة رائجة يحتاجها الكثيرون من الجماعات التي كانت تنام على مقربة من الشام واطراف الشام .

ولم يكن العرب بألفون من التجارة ، ولا كانوا يضيقون بها ذرعاً ، ولذلك باشروها بانفسهم ، وراحوا يقتسمون الوانها

واشكالها ، فكان منهم من يبيع اللباس ومنهم من يبيع الادهان، ومن يبيع اللحوم ، ومن يبيع الاداة والسلاح ؛ ومن يبيع الرقيق ومن يبيع الاشربة والعقاقير ، فكان ابو بكر بزازاً و كان عمر مثله ، ويقال انه كان غير ذلك .

اما المال فقد كان كثيراً عندهم بدليل قول النبي عليه السلام: « ان صفوان بن امية قنطر في الجاهلية وقنطر ابوه » وبدليل الاموال التي دفعتها قريش فداء لاسراها يوم بدر .

***

ولا شك ان خديجة بنت خويلد في تجارتها كانت تساوق عادات قومها ، فكانت تبعث بما في الحجاز ومكة من نبات ومعادن وغيرها الى الشام يبيعه وكيلها ثم يشتري بثمنه من بضائع ذلك القطر ما يشاء ، وينقلها معه الى مكة ، فتباع فيها او بسوق عكاظ وغيرها .

وليس من شك في ان محمداً قد ذهب للشام في تجارة خديجة بعد ان تبضع من بضائع الحجاز وطرفه ، وكانت خديجة قد عرضت عليه ذلك لما سمعته من امانته واستقامته وحسن خلقه وكريم شيمه ، وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من التجار . فمشى محمد الى عمه ابي طالب يحدثه بهذا ، فنصحه بالقبول ، ففعل ، وذهب في تجارة خديجة الى الشام مع غلامها ميسرة ، فباع ما لديه واحسن البيع

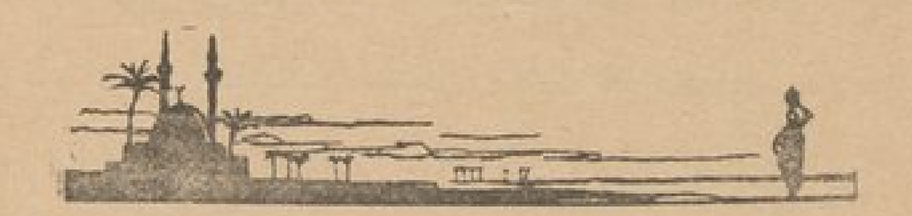
ووفق في ذلك توفيقاً حسناً ، ثم حمل من بضائع الشام ما للحجاز به حاجة ، فباعتها خديجة فربحت اضعافها

واحست خديجة بجاذب قوي يجذبها نحو هذا الشاب القليل الكلام ، الكريم الخلق ، الجميل الصورة ، الذي كان وهو في هذا السن — وكان عمر محمد يضطرب في الخامسة والعشرين — لا يكاد يتصل بامثاله من الشباب ، ولا يتعلق بما يتصرف اليه من في سنه من عبث ومرح واستهتار ، وكان قد طرق الى مسامعها ما يتولى به القدر والسماء هذا الشاب من عطف واكرام ، وكانت تستمع الى ان نبياً جديداً سيظهر في الجزيرة ، فكانت تحس من اعماق قلبها ان هذا الرجل لن يكون غير محمد ، وهل هناك في الجزيرة مثل محمد خلقاً وكمالاً وجلالا ، وعظمة نفس ؟

واني لواثق بان خديجة قد راحت تتحدث الى غلامها ميسرة بعد عودته من الشام عن محمد وشأنه وامره وما كان يتحدث به اليه ، ويحاوره به ، وقد راح ميسرة يحدثها حقاً بهذا الشاب الصامت الغريب ، الذي يأنس بالوحدة ، ويرتصد الليل وسكون الصحراء فيمشي اليها ؛ ويجلس لها ، ويمعن في ذلك امعاناً لم ير مثله في سواه ، خصوصاً وان من كان في سنه يكون من اقرب الناس للاجتماع والمخالطة والمنادرة ، ولا يبعد ان يكون ميسرة قد حدثها بما كان يستشعر به وهو في هذه السفرة من ان هناك قوة تحمي محمداً ، وتدرأ

العوادي عنه ، وتحافظ عليه ، خصوصاً هذه الغمامة التي كانت تسير فوق رأسه تمنع عنه اذى الشمس وكيد القيظ

وتأنس خديجة بكلام غلامها ، وقد وجد هوى في فؤادها، ووافق ما كانت تحسه وتشعر به ، فتحس بحب محمد يتسلل الى فؤادها ، ويختلط في دمها ، واذا هي لا تطيق عنه صبراً، ولا عن بعده احتمالا .



٤

زواج محمد بخديجة

مشى محمد بن عبد الله بعد عودته من الشام الى دار خديجة بنت خويلد ، وكان قد استأذن عمه ابا طالب في هذه الزيارة فسمح له بها ، وارسل جارية خلفه تستمع ما يقولان ، فعادت الجارية تقص على ابي طالب ما اذهله واعجبه ، قالت نبعة : فرأيت عجباً ، ما هو الا ان سمعت به خديجة ، حتى خرجت الى الباب فاخذت بيده فضمتها الى صدرها ونحرها ثم قالت :

— بابي انت وامي والله ما افعل هذا الشيء ، ولكني ارجو ان تكون انت النبي الذي ستبعث ، فان تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي ، وادعو الآله الذي يبعثك لي

فقال لها محمد : لئن كنت انا هو لقد اصطنعت عندي ما لا اضيعه ابداً ، وان يكن غيري فان الآله الذي تصنعين هذا لاجله لا يضيعك ابداً .

ولست ارى في هذا الخبر نكراً او مبالغة ، فان خديجة كانت نسيبة لورقة بن نوفل ، ونوفل هذا كان من الذين يدينون بالله في الجاهلية ، وكان على مثل اليقين بان نبياً سيبعث قريباً ، ولا

يبعد ابداً ان يكون قد تحدث الى نسيبته خديجة بامله هذا ، فتلقته خديجة مطمئنة واعية ، وادارت نظرها في سادات العربية في عهدها فلم تجد غير محمد ينعم بهذا الخُلق الذي يجب ان يتحلى به الانبياء ، فكان ما كان من تعلقها به ، وايمانها بنبوته وانه قد يكون النبي المنتظر .

ولكن خديجة كانت تحب محمداً حقاً ، ولم تكن تحبه لما كانت تؤمن به من انه قد يكون النبي المرسل ، فان هذه امور كانت لا تزال مداراً للشك ، وانما كانت تميل اليه لخلقه و كريم اعراقه ، ولما تحسه في قلبها وعواطفها من عطف عليه ، ورغبة بقربه .

ولكنها كانت تخشى ان لا يشاطرها محمد هذا الحب ، او لا يكون ميالاً للزواج بها ، فارسلت من صويحباتها من يرغبه في الزواج ، وقيل انها ارسلت اختها ، فقال محمد :

– ما بيدي ما اتزوج به

فقالت : فان كفيت ذلك ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاءة الا تجيب ؟

قال : فمن هي ؟

فقالت : خديجة !

قال : فانا افعل

فذهبت واخبرت خديجة ، فارسلت الى محمد ان ائت لساعة

كذا وكذا ، وارسلت الى عمها عمرو بن سعد ليزوجهـا فحضر ، ودخـل محمد في عمومته ، وحضر معهم روساء مضر ، وحضر ابو بـكر العقد ايضاً ، فلما اكتمل الحفل تكلم ابو طالب عم محمد فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسمـاعيل ومعدن معد ، واصل مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمـه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ان ابن اخي هذا محمد بن عبد الله ، لا يوزن برجل الا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، فان كان في المال قل ، فان المال ظل زائل ، وامر حائل ، ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله [1] وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم »

فلما اتم ابو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وانتم أهل ذلك كله لا تنـكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد احد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا عليّ معشر قريش باني قدزوجت

(١) اصدقها محمد عشرين بـكرة ، وقيل اثني عشر اوقية ، وقيل ست اواق من الذهب ، وقيل الفين دينار

خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على كذا ... » ثم سكت

فقال ابو طالب : قد احببت ان يشركك عمها

فقال عمها عمرو بن سعد :

« اشهدوا علي يامعشر قريش انني قد انكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد »

فقبل محمد بن عبد الله النكاح ، وشهد على ذلك صناديد قريش .

***

وتنساق لمحمد بن عبدالله حياة هنية هادئة بعد زواجه بخديجة فينعم بهذه الزوجة الصالحة ، وتنعم هذه الزوجة بهذا الشاب النبيل الكامل ، واذا محمد بعد زواجه يتفرغ لاعالة العاني ، ومساعدة المظلوم ، واغاثة الفقير ، وصلة الرحم ، واذا به يفكر في حاضنته الحبشية ، فينظر الى هذه الامة التي توفرت على نشأته بحبها وحنانها ، فيعتقها ويرد اليها حقها الكامل في الحياة الحرة الكريمة فتتخذ لها زوجاً من اهل يثرب كان مقيماً بمكة ، فتعيش معه ما شاء الله ان تعيش ، وترحل معه الى يثرب ، حتى اذا مات عادت الى ابنها الاول محمد بن عبد الله ومعها ابنها الثاني ايمن بن عبيد ، فتعيش في كنفه وفي منزله وعند زوجه خديجة الصالحة ويعيش معها ابنها سعيد بن تاعمين ، حتى اذا اتم الله نعمته على هذا اليتيم واختاره

لما قدر له من الكرامة ، واحتمال الاعباء الثقال ، لا تشغله نعمة ولا محنة ولا راحة ولا جهاد عن امه هذه ، فيتحدث عنها الى اصحابه ويقول هذه الكلمة الرائعة المليئة بالبر والحنان والوفاء : « انها بقية اهل بيتي » وانظر اليه حريصاً على ان تحيا وتنعم بالحياة ؛ حريصاً على ان ينتظم حظها من السعادة في هذه الدنيا مع حظ غيرها من الحرائر ، انظر اليه كيف يلتمس لها الزوج فيقول لاصحابه :

« من سره ان يتزوج امرأة من اهل الجنة فليتزوج ام ايمن »

فيسرع عندئذ مولاه زيد فيتخذها له زوجا ..

وتمتد الايام بام ايمن فتشهد محمداً يبلغ من المكانة ، وعلو المنزلة وجلال الخطر ما ليس يتسق لغيره ، وتنظر اليه وهو يؤذي في سبيل الله ويمتحن في نفسه وفي عشيرته وفي اصحابه ، وتشاهد ما يلقى من جهد ، وما يتحمل من اذى ، وما يستقبل من كيد الخصوم والاعداء ، واذا هو فرد امام جماعة كثيرة العدد ، واذا هو يتقبل كل هذا بالصبر والطمأنينة ، فتكبر ابنها اليتيم وترحمه ، وتستجيب له حين يدعوها الى دعوته ، وتؤمن به حين انذر وبشر ، ولما ائتمر عليه قومه ليقتلوه ، وغادر مكة مهاجراً الى يثرب ؛ ضاقت ام ايمن ذرعاً بمهاجرته ، فتتبعه وتسير خلفه ، وتترك مكة مهاجرة الى الله ورسوله والى ابنها وصفيها ، وانها لتحتمل من مشقات الطريق وجهد السفر ما ليس بالطاقة ولا بالامكان ، وانها لتستعذب

كل هذا وتسيغه وتصبر عليه ، وانها التسافر صائمة ، وتحس في طريقها بالم الجوع ووطأة الظمأ ، فلما توهج الجو واشتد الحر ، وبلغ منها الجهد اقصاه ، وتراءى لها شبح الموت ، امعنت في الصبر ، واغرقت في الاستسلام لمشيئة الله ، واذا بها تحس ان الماء ينزل عليها من السماء ، فتصيب منه ما شاء الله ان تصيب ، وتعيش ام ايمن بعد هذه الشربة اعواماً طوالاً فيها الشدة واليمن ، وفيها البؤس والنعيم ، وفيها الجهد والعناء ، ولكنها لا تعرف فيها الظمأ ولا تحسه ولا تشكوه ، وكيف يظمأ من شرب من ماء الخلود؟..

وتبلغ ام ايمن المدينة ، فيلقاها ابنها حفياً بها عطوفاً عليها ، وتلقاه هي باسمة مطمئنة راضية ، وتقضي معه ايامها في المدينة لا تكاد تفارقه الا حين لا تستطيع الى ذلك سبيلا ، هذه ام ايمن يوم (أحد) تشهد الحرب مع المسلمين ، وتطوف بالماء تسقي الجرحى ومن مسه الجهد ، وانظر اليها يوم (خيبر) تواسي المسلمين وتمنحهم من عطفها وايناسها ورحمتها ما تستطيعه وما لا تستطيعه ، وبدر كها يوم (حنين) وهي على حالها تسعى وراء الجيش ، وتعمل مع العاملين لمساعدة ضعيفه والبر بجريحه ، واذا هي تشهد مصرع ابنها ايمن في (حنين) فلا تزداد الا ايماناً ، وبالله ورسوله حباً .

***

وينظر محمد بعد زواجه الى عمه ابي طالب وقد مسه الجهد ،

وقل مورده ، فيتحرك لمساعدته ، ويسأله ابنه علياً يربيه في داره ، ويحنو عليه في منزله ، ويرضى ابو طالب بهذا ، فينتقل علي من بيت ابيه الى بيت محمد وخديجة ، ويذهب ينعم فيه بهذه الحياة المطمئنة السائغة التي كانت تظل هذا البيت وتغمر ما فوقه وما تحته ·

ولقد ارضعت محمداً امة لابي طالب يقال لها ثويبة اياماً قبيل ان تأخذه حليمه ، فلما علم ذلك من امرها حفظ لها هذه النعمة وعرف لها هذا الجميل ، فلم يكد يقدر على شكرها والبر بها حتى جهد في ذلك ، واذا هو يحمل زوجه خديجة على ان تسعى عند ابي لهب في شراء هذه الامة ليعتقها ، فيأبى ابو لهب ، فيتصل معروف محمد بامه هذه ما اقام بمكة ، حتى اذا هاجر الى المدينة لم ينس امه ولم يهملها ، وانما ارسل اليها الصلات والكسوة من حين الى حين

والحياة في البادية مليئة بالضنك حافلة بالشقاء ، فهذه حليمة السعدية مرضعة محمد تهبط الى مكة تستعين بابنها بعد زواجه على اثقال الحياة ، فيكلم لها خديجة فتمنحها بعيراً واربعين شاة ، وانظر اليها تستأذن عليه مرة اخرى ، فاذا دخلت عليه ورآها قال : امي ! امي ! ثم بسط رداءه فاجلسها عليه ، واخذ يحدثها ويحاورها ويسألها عن حالها وشأنها ، ثم يذهب متحبياً متلطفاً فيدخل يده من دون ثيابها فيمس صدرها باصابعه مساً رقيقاً ، ويقضي لها حاجتها ، ويتكلف الجهد في ارضائها ·

هذا محمد في حياته العائلية، رجل برّ ومعروف، يذكر من كان بألفهم وهو صغير، ويرعونه وهو فتى، فلا يلبث حين ينعم الله عليه، ان يتكلف ما يطوقه لمساعدتهم وقضاء حاجاتهم، وكانت زوجه خديجة تشاطره هذا الانطلاق، وتساعده في البر والسخاء، فكانت حياتهما العائلية شيئاً جميلاً رائعاً عذباً ما يذكر التاريخ انه عكر صفوها عتاب صغير او غضب طفيف.

***

وينزل الوحي على محمد وهو في (غار حراء) يتعبد فيه على جاري عادته في اشهر معروفة من كل عام، فلا يكون ما رآه بشراً من الناس، ولا خلقاً مما يتخيله المتخيلون، فأقرأه ما شاء الله ان يقرأه من آي الكتاب الكريم، ثم اخذ يتراءى له في طريقه بين السماء والارض، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه، فيقف لا يتقدم ولا يتأخر.

كل هذا ورسول الله بين شعاب الجبال، وفي وحشة الطريق فلا انيس ولا سمير، ولا معين ولا نصير

ولم يزل النبي في موقفه هذا، حتى انصرف الملك عنه فانصرف هو الى زوجه خديجة فزعاً مرعوباً مما سمع ورأى فلما ابصرت به قالت:

– اين كنت يا أبا القاسم ، فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ثم رجعوا الي

فحدثها رسول الله حديثه فقالت :

– ابشر يا ابن العم واثبت ، فوالذي نفس خديجة في يده اني لارجو ان تكون نبي هذه الامة

وتذهب خديجة الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان رجلاً عليماً ، اخذ العلم في التوراة والانجيل ودقائقهما واخبار النبوات الاول فتخبره خبر رسول الله فيقول لها :

– لئن صدقتني ياخديجة ، لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه لنبي هذه الامة ، فقولي له : فليثبت

فترجع خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزيده قولها ثباتاً وايمانها به قوة

وكذلك سارت خديجة ام المؤمنين في تثبيت قلب النبي وترويح نفسه ، وتاييد امره ، فلم ير شيئاً يحزنه ، من رد عليه وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه ، الا فرجت صدره ، واذهبت حزنه ، واثلجت قلبه ، وهونت الامر عليه

***

فلا نعجب بعد ذلك اذا رأيت جبريل يقرئ خديجة

السلام من الله ، وهي مثوبة ما ظفر بها احد من السالفين الاولين ، والخلفاء الراشدين ، ذلك ان موقفها يومئذ كان ابرّ برسول الله ، وآثر في بسط دعوته ، وتاييد امره ، من مواقف الابطال والكبراء ، وتأييد العظماء والزعماء من سادات البلاد ، وكبّار العربية [1]



(١) مما يجب ان يشار الى ذكره بمناسبة ما ذكرناه في اول هذا الفصل من حديث زواج رسول الله ، انه صلى الله عليه وسلم جلس بجانب خديجة اثناء العقد ، فلما كان الرضى طلبت اليه ان ينحر جزوراً من الابل التي اصدقها عمه ابو طالب مهراً ، فنحر احدها في الحال واطعم القوم ، وامرت خديجة نساءها بالرقص فرقصن وغنين وهي اول وليمة اولمها محمد بن عبد الله ، وما توفر له مثلها قبل ذلك لفقره وشدة حاجته .

وكان محمد في حفلة العقد ظاهر السرور بادي الانشراح ، حتى ظهر هذا على وجهه ، ولاحظ عمه ابا طالب حالته هذه وسروره ، فسر بدوره وحمد الله كثيراً على عنايته بهذا اليتيم الفقير .

– ٥ –

ابناء محمد وبناته

رزق رسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجه خديجة ستة اولاد : ابنان وهما القاسم وعبد الله ، واربع بنات هن زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة الزهراء

وعلى ذلك صار اجماع المؤرخين المسلمين وغيرهم من مؤرخي الفرنجة الا اقلهم ، ولا اعرف سبباً لاغراق بعضهم في بحث ابناء النبي وبناته ، وانكار وجود بعضهن الا ان يكون الغرض تحوير الحقائق وطمس الوقائع ، واثبات الباطل ، وانكار الحق .

وقد انشأ الاب لامنس المستشرق اليسوعي كتاباً بالافرنسية عن فاطمة وبنات محمد ، استند في انشائه الى مصادر كثيرة ؛ وذهب فيه المذاهب المنكرة ، فتارة ينكر وجود بعض بنات محمد ؛ وتارة يتعمد ايذائهن بما لا يتورع من نشره من اخبار عنهن ، نضطرب في كثير من الافك والبهتان

ومن البديهي ان يضطرنا جلال موضوعنا هذا الى بحث كتاب لامنس ونقده ، خصوصاً وانه فريد في العربية والافرنجية ، وقد تناول فيه حياة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم

وعرض لبنات محمد وتاريخ حياته العائلية بطريقة لم يسبقه اليها احد من المؤرخين والكتاب

يذكر لامنس حب رسول الله للبنين ورغبته في ان تكون له ذرية، وكيف انه كان يعير بين قومه بضعف ذريته ويسمونه : (محمد الابتر لا يعيش له ولد ذكر) [1] وكيف رد القرآن على هؤلاء بقوله: « ان شانئك هو الابتر » وكيف كان غيرهم يقول : « ان محمداً ليس له ولد ولا اخ فاذا مات انقطع ذكره » وان هذه الاسباب كلها حملت موءلفي السيرة على الاكثار من ابناء محمد وبناته ، والتحدث عن ابناء وبنات لا وجود لهم، كالطيب والمطيب وعبد العزة وعبد مناف، مع انه من الصعب اثبات وجود هوءلاء الابناء خصوصاً وان موءلفي السيرة النبوية انفسهم يختلفون في اسمائهم وو جودهم [2]

واما نحن فما نعلم ان لرسول الله غير اربع بنات وثلاثة بنين ، وكلهم من خديجة الا ابراهيم فانه من مارية القبطية ، فاما البنات فهن : زينب ثم رقية ثم ام كلثوم ثم فاطمة، واما البنون فهم القاسم وهو اكبر بنيه وبه يكنى ، ولد قبل النبوة بمكة وتوفي وهو ابن سنتين وهو اول من مات من ولده ، ثم ولدت له خديجة بناته الاربع

«١» البلاذري في انساب الاشراف، ابو عبيده، غريب الحديث، القرآن سورة « ١٠٨ » — « ٣ »

«٢» لامنس : فاطمة وبنات محمد ص ١ — ٧

على النسياق الذى سبق ذكره ، ثم ولد له في الاسلام عبد الله «وهو الطيب والطاهر» [1] وهؤلاء كلهم من خديجة ، ومات بعد القاسم عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمي: «قد انقطع ولده فهو ابتر» وعبد الله آخر الاولاد من خديجة

اما ابراهيم فولد له من مارية القبطية سنة ثمان؛ ومات وهو ابن ستة عشر شهراً وقيل ثمانية عشر في سنة عشر من الهجرة

ثم يتكلم لامنس عن بنات رسول الله فيقول :

« ان اسماء بنات محمد كما تذكرها السيرة اسماء عادية، وان رقية وام كلثوم ماتتا دون ان يترككن ذرية، وان ام كلثوم ليس لها اسم ثان غير كنيتها ، وانها تزوجت ورقية بابناء عمهما ابي لهب، ثم تخلى زوجاهما عنهما فتزوجهما عثمان بن عفان، الاولى بعد وفاة الثانية » .

ويزيد لامنس ان مؤرخي السيرة ابعدوا رقية الى الحبشة ثم اعادوها الى والدها ، الذي وجدها ميتة بعد رجوعه من معركة بدر، وان اسم ام كلثوم مذكور مرة واحدة في اقدم كتاب للسيرة ،

«١» لقد وقع لامنس في خطأ لا يجوز ان يقع فيه مثله ، فان هذه الكنى التي كان يكنى بها الابن الواحد ، قد دفعته الى القول بتعدد اولاد محمد ، وما نظنه الا قد فعل ذلك قصداً، وزعم هذا الزعم عمداً ، لانه لا يصح بمثله ان يقع فيما لا يقع بمثله طلبة المدارس

ويتخلص لامنس من كل هذا الى القول بانه لا وجود حقيقي لهاتين الابنتين، وان موءلفي السيرة النبوية قد اخترعوهما اختراعاً ولفقوهما تلفيقاً للاكثار من نسل رسول الله .

ووقف لامنس من تسمية عثمان بذي النورين لما تزوج باثنتين من بنات رسول الله ، فقال :

« ان الاسماء المبتدأة (بذي) و (ذو) كانت كثيرة عند العرب فكانوا يسمون ذا اليدين وذا الوجهين وذات النطاقين ، ولذلك فان لقب عثمان هذا ليس يحملنا على الايمان بانه انما لقب به لزواجه باثنتين من بنات النبي ، اذ لا يبعد ان يكون هذا اللقب من اسمائه الاولى [1]

***

ويأتي لامنس على ذكر زينب ابنة الرسول الاولى ؛ فيعجب كيف انقرضت ذريتها دون ان تثير اهتمام العالم الاسلامي ، ويعجب لماذا لم تهاجر مع والدها الى المدينة لما اضطر الى مغادرة مكة ، وقد ذكر اليعقوبي [2] «انها ظلت مع زوجها ابي العاص بن الربيع ابن العزى بن عبد شمس ابن خالتها ، وامه هالة بنت خويلد اخت خديجة لامها وابيها » فلا يسيغ لامنس هذا الخبر ويذهب الى القول بانها

«١» فاطمة وبنات محمد لامنس

«٢» اليعقوبي جزء ٢ صفحة ٤٢

ابت مفارقة زوجها وفضلت البقاء معه على المهاجرة مع والدها رسول الله ، ويستند في ذلك الى ما جاء في تاريخ الطبري [1] . « لم يزل ابو العاص معها ـ اي زينب ـ على شركه الى قبيل فتح مكة »
والواقع انه لم يكن هناك من حاجة الى مغادرة زينب رضي الله عنها زوجها وهو يعاملها معاملة حسنة ، ويمنعها ، ويحفظها ، ولو ان قريشاً عاملت رسول الله والمسلمين بمثل ما كان يعامل به ابو العاص زوجه زينباً لما كان هناك من فائدة للهجرة ، ولظل الاسلام قابعاً في مكة ينشر رسول الله دينه بالحسنى ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر

واما زينب رضي الله عنها فهي اكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تزوجت ابن خالتها ابا العاص بن الربيع قبل النبوة ، وكانت محبة لزوجها ، ولما اسر ابو العاص في وقعة بدر وكان مع مقاتلة قريش ، ارسلت زينب في فدائه (الربيع) بمال دفعته اليه ، ومن ذلك قلادة كانت امها خديجة قد اهدتها اياها يوم زواجها بابي العاص ، فلما رأى رسول الله القلادة رق لها وقال للمسلمين :

« ان رأيتم ان تطلقوا لها اسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا »
فقالوا : نعم .

«١» الطبري جزء ٣ صفحة ٢٣٣

وكان ابو العاص مصاحباً لرسول الله مصافياً له ، وقد ابى ان يطلق زوجه لما طلبت قريش ذلك منه، ولما اطلقه رسول الله من الاسر، شرط عليه ان يرسل زينباً الى المدينة ، فوعده ووفى بوعده .

ولم تزل زينب بالمدينة ، وابو العاص بمكة على شركه ، ـ وكان قد طلق بينهما رسول الله ـ حتى خرج ابو العاص بتجارة الى الشام قبيل الفتح ، فبينما هو عائد من تجارته لقيته سرية لرسول الله فاخذته ومن معه من رجال وعير واموال ، وتمكن ابو العاص من الهرب ، وعاد الى المدينة متخفياً فدخل على زينب فاستجار بها فاجارته .

فلما صلى رسول الله صلاة الصبح صاحت زينب :

— ايها الناس اني قد اجرت ابا العاص بن الربيع !

فلما سمع ذلك رسول الله اقبل على الناس وقال :

ـ هل سمعتم ما سمعت ؟

فقالوا : نعم

فقال : والذي نفسي بيده ما علمت بذلك حتى سمعتم ، وقال : « يجير على المسلمين ادناهم » ثم دخل على ابنته فقال لها :

ـ اكرمي مثواه ، ولا يخلص اليك فانك لا تحلي له

قالت : انه قد جاء في طلب ماله

فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال تلك السرية وقال :

ـ ان هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد اصبتم له مالا ، وهو مما افاء الله عليكم به ، وانا احب ان تحسنوا وتردوا عليه الذي له فان ابيتم فانتم احق

فقالوا : بل نرده عليه

وردوا عليه ماله جميعه ، فعاد الى مكة وادى الى الناس اماناتهم ثم سأل اهلها اذا كان لاحد في ذمته بقية مال ؟ فقالوا : لا

فقال : فاذا كان الامر كذلك فاعلموا باني قد اسلمت

وعاد الى رسول الله فاسلم ورد عليه الرسول زوجه بمهر جديد ، وولدت له زينب علي وامامة ، وقد توفي علي وهو صغير ، وعاشت امامة حتى تزوجها علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وكان رسول الله يحبها وهي التي كان يحملها في الصلاة على عاتقه ، فاذا ركع وضعها ، واذا رفع رأسه من السجود اعادها

ويأتي لامنس بعد ذلك الى ذرية زينب من زوجها ابي العاص فاذا بها فتى وفتاة ، فاما الفتى فاسمه علي ، واما الفتاة فقد اسماها هالة وقد توفي علي وهو صغير ، واما هالة فعاشت بعد والديها عمراً طويلا [1] ويعجب كيف ان ثروة العاص لم تذهب لها وذهبت الى الزبير بن العوام ابن عم والدها ، وينكر على معاصريها سكوتهم عن حقها

---

(١) اجمع اكثر المؤرخين على ان ابنة زينب رضي الله عنها كانت تسمى امامه ، وذهب اقلهم الى القول بان اسمها هالة وهو ما ذهب اليه لامنس

المهضوم وثروتها الضائعة ، وهي غيرة يشكر عليها الاب لامنس ، ولكنها في غير محلها ومكانها ، فان كتب السيرة لا تذكر شيئاً عن ثروة امامة

وما ندري من امرها وبعد زواجها الا القليل ، كما اننا نجهل المصدر الذي استقى منه لامنس خبر هذه الثروة ولعله يفيدنا عنه ، وما نظنه الا من المصادر الضعيفة ؛ التي يحلو للاب الترويج لها والاشادة بها ، ظناً منه انه قد عثر على كنز ثمين ، وسند خطير



- ٦ -

فاطمة بنت محمد

يخلم لامس على كتابه جو آمن الاطمئنان والثقة ، حين يعرض لفاطمة وتاريخها، فينشرح صدره ، ويحاور نفسه وقرائه انه الآن على ارض ثابتة؛ وان وجود فاطمة امر لا شك فيه ، وانها ابنة النبي من امرأته خديجة حقاً ، ولكنه يعجب لهذه الشخصية - شخصية فاطمة - التي تناساها المؤرخون فلم يحفلوا بها اول الامر ، ثم عادت للظهور والانتشار بعد ظهور فكرة التشيع في الاسلام، واخذت شهرتها تستطير وتتسع بينا اخواتها ليس لهن ذكر ولا حديث

فاما عدم ذكر مؤرخي السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرده ان مؤرخي السيرة انما كانوا يؤرخون للنبوة والاسلام ، ولم تكن النبوة والاسلام معلقين ببنات الرسول متصلات بهن ، خصوصاً وانهن لم يخضن حرباً ، ولا اندفعن في معركة ، ولا كان لهن من الشأن في سياسة الرسول وشريعته ، بما يدفع المؤرخ الى ذكرهن والتبسط في تاريخهن ؛ ومن البداهة والحالة هذه ان لا يذكر المؤرخون من اخبارهن الا ما كان له كبير شأن او عظيم اثر

ولقد اختلف المؤرخون والمستشرقون في ميلاد فاطمة رضي الله عنها كما اختلفوا في ميلاد اخواتها من قبلها ، فذهب بعضهم يجعلها البكر ، وذهب آخرون الى غير ذلك ، والواقع انها كانت صغرى بنات رسول الله ، وذهب لامنس الى ان بعض مؤرخي السيرة ولم يذكر اسماءهم ، قد راحوا يؤخرون ميلاد فاطمة لتكون ما تزال في سن الفتوة حين يخطبها علي بن ابي طالب ، حتى لا يقال ان خطوبتها تأخرت كثيراً ، وان احداً لم يطلبها ولا فكر بها .

ولكن اجماع المؤرخين قد انعقد على ان زينبا ورقية قد تزوجتا قبل فاطمة ، واما ان رقية قد تزوجت بوثني هو ابن عمها ابي لهب ، فمن المؤكد ان هذا الزواج قد وقع قبل النبوة ، وقد صار طلاقها منه بعدها ، وكذلك كان شأن زينب بكر بنات الرسول ، ومما يجب ان يصار الى الاشارة اليه هو ان تحريم تزويج المسلمات بمن ليس بدين بدينهن ، قد وقع بعد الهجرة وقد نزلت آية التحريم في المدينة ، فلا مجال والحالة هذه للتكلف والتمحل في ذلك .

ولقد تزوجت رقية قبل زينب رضي الله عنهما ، وصار طلاقها من زوجها وابن عمها قبل الهجرة الاسلامية الاولى الى الحبشة ؛ ولما هاجرت رقية الى الحبشة كان معها زوجها الثاني عثمان بن عفان [1]

«١» الطبري ج ٣ ص ٢٤٣ ، سيرة ابن هشام ١٢١ و ٢٠٨ ، المسعودي في مروج الذهب ص ١٦٢ ، المقريزي في الفصل المخصص لبنات الرسول

واما ما يعجب له لامنس من تزويج رسول الله بناته بوثنيين وهو الجبار القوي في دفاعه عن الوحدانية الالهية ، فمناورة فاشلة ، لان هذا الزواج كما قدمنا كان قبل الاسلام ، وقبل شروع رسول الله بدعوته ، وقبل نزول الامر بالتحريم

اما قول ابن الكلبي بان ولادة فاطمة وقعت قبل ولادة رقية فقول ضعيف ، وقد اخطأ غيره من المؤرخين امثال المقريزي وابن الجوزي ، وصاحب تاريخ الخميس وغيرهم [1] في ترتيب ولادة بنات رسول الله ، ولكنهم يكادون يجمعون على ان فاطمة لم تكن بكر بنات الرسول ، وقد قال ابن عبد البر :

« ان زينباً هي البكر وفاطمة بعدها ، وان ما سوى ذلك من قول لا يصح الالتفات اليه » [2]

***

متى كانت ولادة فاطمة رضي الله عنها ؟ هذا سؤال نجد بشأنه كثيراً من التردد وعدم الاستقرار في مؤلفات الكثيرين ، فان (سينجر) مؤلف حياة محمد ، لم يوفق الى الاهتداء لتاريخ الولادة بالضبط ، ولا الى ترتيب ولادة بنات الرسول ؟ فاكتفى بالقول :

«١» امثال الزهري وابن بكار

«٢» استيعاب ص ٧٥٣ — ٧٧٠ طبعة حيدر اباد بالهند

« لعل موءرخي السيرة حسبوا عمر فاطمة من كتب ومستندات لم تصلنا » [١]

واما لامنس فيرى في هذا القول كثيراً من الضعف ، ويهزأ من الاعتماد على اشياء قد لا تكون موجودة

ولكن الموءرخين وان اختلفوا في عمر فاطمة وسنة ولادتها الا ان اكثرهم يقرر ان ولادتها وقعت في السنة التي اعيد فيها بناء الكعبة [٢] او حوالي ذلك ، واما قول اليعقوبي انها ولدت بعد نزول الوحي ففيه ضعف كثير ، ويذهب بعض الموءرخين [٣] الى انها كانت تكبر عائشة بخمس سنوات ، ويقول المسعودي ان فاطمة ولدت قبل الهجرة بثمانية اعوام ، ويجعل زواجها بعلي وزواج عائشة برسول الله سنة ست بعد الهجرة

واما لامنس فيقول اذا صح هذا ، فمعناه ان خديجة رضي الله عنها قد حملت بفاطمة وقد تجاوزت سن الستين فكيف تحمل امرأة في هذا السن ، خصوصاً وانه من الثابت ان خديجة قد توفيت وهي في الخامسة والستين من عمرها [٤] ولكن المقرر اليوم هو

«١» سينحر محمد جزء ١ ص ٢٠٣

«٢» الطبري جزء ٣ ، ابن الجوزي

«٣» الخميس جزء ١ - ٣١٣ ، اليعقوبي جزء ٢ — ١٩ ، وابن حجر

«٤» مقاتل الطالبيين

ان فاطمة قد نظرت النور قبل الهجرة بخمس او اربع سنوات و كانت خديجة رضي الله عنها في الخامسة والخمسين من عمرها، وهذا هو الرأي السائد وعليه انعقد الاجماع؛ واما ما سوى ذلك فضلال وتضليل .

***

هذا ما بسطناه من الوان الاختلاف في مولد فاطمة، وهذا الاختلاف يقع على امثاله الباحث المنقب في كل ما يتصل بمختلف ادوار حياتها، فليذكر قرائنا هذا ، وليعلموا اننا انما نقدم اليهم اصدق الاخبار ، واوثق المصادر ، وان سوانا قد يذهب الى غير هذا ، ولكن ما نقدمه اثبت وارجح واحق ان يتبع



- ٧ -

فاطمة قبل زواجها

لقد تكلفت الفصول السابقة اصور فيها حياة رسول الله قبل زواجه وبعدها ، وكل املي ان اكون قد وفقت في ما اثبته من اخبار ، وتوفرت على نشره من احداث ووقائع ، وقد تقدمت بكل هذا ، لتنتظم لهذا الكتاب الوان الكمال والتحقيق التاريخي ، فان وقع قاريء كتابنا على قصد في الوصف ، وتريث كثير في الاستنباط فليذكر ان حياة رسول الله قبل النبوة تكاد تكون خلواً من الاحداث الخطيرة ، والوصف المستفيض ، وليعلم ان مؤلفي السيرة انما توفروا على وصف حياته صلى الله عليه وسلم بالتفصيل والدقة بعد النبوة وحين اخذ يدعو الناس للاسلام ، ولعبادة الله الواحد الاحد .

اما حياة رسول الله العائلية فقد كانت هادئة مطمئنة ، تنساق له فيها الايام والليالي دون ما حدث ولا امر يصح بحثه وتفصيله ، وليس يذكر المؤرخون من اخباره الا ما توفر له من رفع الحجر الاسود الى مكانه يوم اختلفت قريش فيمن يرده اليه ، واما ما

سوى ذلك فليس يجد القارىء له تفصيلاً ولا وصفاً في ما لديه من كتب السيرة ، ومؤلفات المؤرخين

ولكنهم الى هذا كله يكادون يجمعون على ان رسول الله كان يحيا حياة هادئة وادعة ، وانه كان يألف العزلة ، ويطلب الانفراد ويقصد غار حراء — وهو يقع في جبل على مقربة من مكة — في ايام معدودات من كل عام ، يتعبد ويفكر ويستسلم لهذه الحياة الروحية العذبة التي كانت تملأ عواطفه وتغمر كل افكاره .

وكانت زوجه خديجة لا تفتأ تتكلف المستحيل في سبيل ارضائه وراحته ، وتعمل ما بالامكان وما فوق الامكان لتجعل ايامه هادئة رائعة سائغة مستحبة ، ذلك انها كانت تقدر برّه بها وعطفه عليها ، وكانت تحس من اعماق قلبها بان زوجها ليس كسواه وغيره من الناس ، وانما هو شخص ممتاز يستحق التقديس والاحترام .

وكان رسول الله يختصها بدوره بالاحترام والمحبة ، ويتكلف مرضاتها ورضاها ، وكان لها في قلبه مكاناً رفيعاً ، ومنزلة عظيمة وكان لا يفتأ يعترف باكرامها ؟ ورحمتها به ، حتى انه لم يفكر قط بالتزوج بسواها في حياتها ، مع انها كانت اكبر منه سناً ، تزوجها

وهو في سن الخامسة والعشرين وهي في الاربعين.

***

ويمر المؤرخون بموقف خديجة من ولع محمد بن عبد الله بالتعبد والانفراد والعزلة في غار حراء مراً رقيقاً، ويذكرون فيما يذكرون من اخبار رسول الله وتعبده ونجواه، ان خديجة زوجه كانت تعد له ما يلزم من الزاد، يكفيه اياماً، حتى اذا ما نفذ اعدت له غيره، يذكر مؤرخو السيرة هذا ثم لا يعلقون عليه شيئاً، فلا يتسائلون عن هذه الاسباب التي كانت تحفز خديجة لمساوقة زوجها في عزلته وتجنبه لها، وتثبيته عليها، مع ان ما نعلمه عن العواطف النسائية يكاد يكون مناقضاً لما كانت زوج رسول الله تتوفر عليه، من الرضى ببعده، والقبول بعزلته مع حبها له، وولعها به، واما ما قدمناه من اطمئنان خديجة الى ان محمداً بن عبد الله قد يكون النبي المرسل الجديد، كان يحفزها على تزويده بالزاد لعزلته، ورضاها ببعده، وقبولها لهجره، لا تعرض لهذا البعد بغضب وانكار، ولا تضيق ذرعاً لهذا الفراق والهجران.

***

يقول لامنس في كتابه فاطمة بنت محمد: «انه لكي نصل الى صورة حقيقية لفاطمة، يجب علينا ان نترك الاكاليل الذهبية التي عقدها المؤرخون على مفرقها، وان نعرض لها وفاقاً للنقد التاريخي

المعاصر، فقد كانت فاطمة في حياتها، وفي بيت والدها تعامل معاملة عادية، من والديها، ومن غير والديها من الصحابة وغير الصحابة، وليس هناك ناحية واحدة نرى فاطمة فيها تستمتع بحظوة واحترام يفوقان ما كانت تستمتع به بدويات ذلك الزمن

« ولم يكن شأنها في بيت والدها خطيراً ظاهر الاثر، بادي الخطورة، بل لقد كان خطرها اقل شأناً من خطر عائشة و حفصة وزينب وغيرهن من نساء النبي، ولكي نتأكد من ذلك علينا ان نطلق البصر في السير القديمة كسيرة ابن هشام مثلا، فان فاطمة تذكر في هذه السيرة مرتين فقط [1] مع ان هذه السيرة تبسم لعلي بن ابي طالب، وكان من الحق ان تعرض لسيرة فاطمة بشيء من التفصيل، ولم يكن حظها من ابن سعد في طبقاته ليفوق حظها من ابن هشام، فان هذا لما كتب سيرة علي، لما يأت على ذكر فاطمة بكلمة واحدة، واما ابن حنبل فقد خصها في مسنده باسطر قليلة [2]

« واما هذا الاكبار والاعظام والتقديس الذي يستمتع به اهل البيت اليوم فقد نشأ في الجيل الثاني، حيث اخذ المؤرخون وغير المؤرخين يتوفرون على ابراز شخصية فاطمة المزيلة ويسبغون

«١» ابن هشام ص ١٢١ و ٧٧٦

«٢» ابن حنبل مسند ج ٦ ص ٢٨٢

عليها ما يشاءون من الاكبار والتقديس ، ومن غريب امرهم انهم اخذوا يخصون باهتمامهم عليّاً واولاده – اي اولاد فاطمة منه – باكثر مما يخصون به فاطمة بنت محمد من اهتمام وعناية

« ويظهر اسم فاطمة قليلاً في كتاب الاغاني ومؤلفه ابو الفرج الاصبهاني مشهور بولائه للعلويين ، واما شخصية فاطمة نفسها وظهورها وتقديسها فقد بدأ به المسعودي مؤلف مروج الذهب ثم اليعقوبي واتبعهم في ذلك من سلك طريقهم من المؤرخين ؛ ولابد من الاشارة هنا الى ما هو مشهور من استثمار الخلفاء العباسيين اول عهدهم بالملك الى اسم فاطمة والعلويين من ابنائها ، ثم راحوا يخنقون هذا الاسم في بحر من الدم كما هو مشهور ومفصل في كتاب مقاتل الطالبيين ،[1] ومما يلفت النظر الى ان اسم (علي بن ابي طالب) يحل في هذا الكتاب محل اسم فاطمة »

***

والواقع اننا لا ننكر هذا الاغفال الذي وقع فيه كثيرون من المؤرخين حين عرضوا لعائلة رسول الله ، ولكنه اغفال لم يكن مقصوداً ؛ ولا هو يختص بفاطمة دون غيرها ، ولم يكن حظ زوجات النبي اكثر من حظ بناته وابنائه عند كتاب السيرة وغيرهم ، ذلك ان هؤلاء المؤلفين انما كانوا يعرضون في كتبهم لرسول الله

---

(١) مؤلفه ابو الفرج الاصبهاني

والاسلام ، ولم يكن لابناء رسول الله وابنائه وزوجاته من شأن في السياسة والدين ، ولم يذكر المؤرخون عائشة زوجة الرسول الا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وحين راح المسلمون يأخذون عنها بعض شؤون الدين والاحاديث ، ولذلك لا نرى نحن في اغفال المؤرخين لهذه الناحية كبير امر ، ولا نعتقد انهم في اغفالها قد احدثوا خرقاً في الدين ولا في التاريخ ، ولا نتصور ان حياة الرسول العائلية كانت تحتاج الى كثير من التفصيل والتبسط ، ذلك انها لبساطتها وهدوءها كانت معروفة مشهورة عند الجميع

واذا ما عرض كتاب السيرة لعائشة رضى الله عنها باكثر مما عرضوا لسواها وغيرها من بنات الرسول وزوجاته ، فلا اثر لها في بعض الاحداث التي جرت في عهده ، ولما انصرفت له من سياسة خاصة بعد وفاته ، واما فاطمة رضي الله عنها فقد كانت تنعم بحياة هادئة سائغة ناعمة ، ليس فيها ما يصح ان يعرض له المؤرخون بالبحث والتفصيل ، ذلك انها كانت حياة عادية عائلية كانت تنعم بها هي ، وكان ينعم بها غيرها من زوجات الرسول وبناته

واذا لم يكن في تاريخ فاطمة وهي في دار والديها ما يصح ذكره من اخبار واحداث ، فانها خلافاً لسواها كانت تنعم بعطف رسول الله خاصة ، وكانت احب بناته الى قلبه ، واشبههن به في خلق وخلق ، وكان رسول الله يدعوها بام ابيها ، ولعل سبب ذلك

توفرها صلوات الله عليها على خدمته ، واهتمامها بشؤونه ، بعد ان بلغت خديجة من الكبر عتياً ، وكانت فاطمة في نشأتها مضرب المثل في اشتمال الكمال ، ولها يقول رسول الله :

« ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك »

وفيها يقول (فاطمة مني يؤذيني ما اذاها ويريبني ما رابها) وهو قول لم نسمعه في غيرها ولا في سواها

وحسبك ان تسمع فيها قول عائشة ام المؤمنين :

ـ ما رأيت افضل من فاطمة الا ابيها

ولم يكن اسم فاطمة غريباً عند العرب كما يظهر ، فقد كانت زوج ابي طالب وام علي تسمى فاطمة ايضاً ، وقد كانت هذه السيدة الجليلة خلفاً لخديجة رضى الله عنها في خدمة الرسول والعناية به ، وخلفاً لابي طالب في الذود عنه ، والانتصار له ، ورفع الصوت حراً في سبيله ، وظل هذا شأنها حتى هاجر رسول الله الى مهبط امنه ، ومستقر انصاره ، فتبعته في هجرته ، وقد قدر لها رسول الله خدمتها له ونصرتها لدينه ، بان كفنها بثوبه يوم لحقت بربها ، ونزل في قبرها ، واضطجع فيه ، فكان حقاً على القبر الشريف ان يشرف بنور الله ويعبق بروحه ، ويفيض برحمته

وقد قيل لرسول الله :

— ما رأيناك صنعت باحد ما صنعته بهذه ؟

فقال : « انه لم يكن بعد ابي طالب ابرّ بي منها »[(١)]

ويختطف الموت خديجة زوج النبي ، وابر الرجال والنساء به ، واحناهن عليه ، واحفظهن لعهده ، واسرعهن لنصرته ، واكثرهن توطيداً لعزيمته ، وتفانياً في سبيله ، وفاطمة لا تزال طفلاً لعوباً ، فيغمرها الحزن ، وتتولاها الكآبة حين ترى تفجع والدها رسول الله على زوجه ، واضطرابه لموتها، وبكائه لفراقها ، فتحس وهي الفتاة اللعوب بخطورة الخطب وعظيم المصاب ، فتذرف الدموع الكثيرة على فراق والدتها[(٢)] ويلم بها هذا الحزن الصامت فلا ينفك عنها ، وهذا يعلل ما يذكره بعض مستشرقي الفرنجة من طبعها الحزين ، وتفجعها المتواصل[(٣)] : وهو ما اضر بصحتها بعض الزمن ، خصوصاً وانها لم تكن قوية البنية ، وانما كانت رقيقة الجسم ، سمراء اللون ، جميلة الطلعة ، ولعل ضعف بنيتها هذه ، وحب رسول الله لها وما كان من اثر تفجعها لفقد والدتها ، قد حمل رسول الله على منعها من الانهاك باشغال البيت ، كما كان شأن المرأة العربية في ذلك الزمن حفظاً لصحتها ، ان يلم بها مرض ، او يتسلل اليها تعب ونصب[(٤)]

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٠ ــ ٨٣ ، طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٢ ــ ١٤ ، ابن جرير ج ٤ طبع اوربا ، والاصابة

(٢) المسعودي

(٣) فاطمة بنت محمد ، لامنس

(٤) الاغاني ج ١١ ص ١٦٤ ، الطبري ، صحيح البخاري ، مسند حنبل

وينكر لامنس على فاطمة جمال الوجه وحسن القوام، ويذهب الى انها لم تكن كذلك ، ويزيد قائلا (ان رقية اختها كانت امتع منها وجهاً واجمل قواماً)[١] ويذكر لامنس في ما يذكره في كتابه عن فاطمة وضعف شأنها عند والدها رسول الله حديثاً يرده، بالسند الى عروة بن الزبير ، وخلاصة هذا الحديث ان الرسول كان يقول: (زينب افضل بناتي) ويتبسط لامنس في هذا الحديث فيقول: ان علياً بن الحسين كان يغضب لسماعه ، ويقول لعروة بن الزبير وهو يرويه : (انك تقصد من روايتك هذا الحديث الحط من شأن فاطمة ومقامها)

واما ذكاؤها فيقول لامنس : ان كتاب السيرة اقل ذكراً له من جمالها ، وانها والحالة هذه لم يكن بطوقها مقاومة عائشة القوية الذكاء ، البعيدة البصر ، الشديدة الحيلة .

ومن الحق ان نعارض لامنس في قوله هذا ، فان رسول الله لم يكن محباً لفتاته الصغيرة هذه الا لذكائها وعلمها وبعد نظرها، ثم انها — وفي كتب السيرة — اكثر ذكراً من غيرها من بنات رسول الله، هذا اذا ذكرنا ان كتاب السيرة لم يكونوا يؤلفون لبنات رسول الله وعائلته الا بمقدار ، وفيما يتصل باثر بناته وعائلته

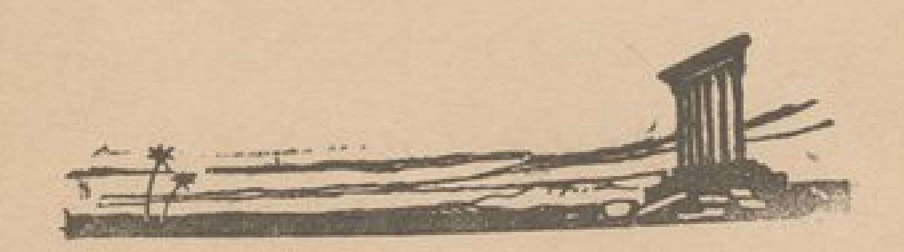
---

(١) تاريخ الخميس ص ١ — ٢٣٠

(٢) 〃 〃 〃 — ٢٠٩

من شأن في الدين والاسلام

ولقد كانت فاطمة رضي الله عنها في رأي الكاتب الهندي الشهير سيد امير علي (تمثل اشرف ما في المرأة من قداسة وانسانية) ومن البديهي ان تكون فاطمة وهي تمثل اشرف ما في المرأة من انسانية وقداسة ، سيدة تنعم بالذكاء الوفير ، والعلم الجم ، وحسبك انها تربت في مدرسة النبوة ، ونشأت في بيت محمد ، لينتظم لها الكمال والخلود والثقافة والعلم والخلق والاخلاق .



— ٨ —

خطبة فاطمة

لقد انتهى لامنس من كلامه عن فاطمة ، وضعف اثرهـا ، وندرة اخبارها في كتب المتقدمين ، وما استطرده من هذا كله ، واستنتجه من قلة اهميتها عند والدها رسول الله ؛ وعند الصحابة والتابعين ـ وهو ما توليناه بالنقد ، ورددناه الى اصوله ومنهاجه ـ الى القول : «بان فاطمة ، وهذا ما وصفناه من حالها لم تكن من النساء المرغوب فيهن عند معاصريها ، ولا ينكر لامنس الى هذا كله ما كان لبيت محمد من الحب والقداسة في نفوس المسلمين ، وهو حب كان يسبغ على فاطمة لوناً جديداً ، ويغفر ما لها من عيوب » واما عيوبها في نظر لامنس فهي حزنها المتواصل ، وصورتها التي لم تكن تنعم بالجمال الرائع ، وقد اجهد هذا المستشرق العالم البارع نفسه ليقرر في كتابه هذا ، ان هذه العيوب التي كان يزعمها كانت السبب الاكبر في تأخر زواجها ، وان اصحاب رسول الله مع تقديسهم لرسول الله وحبهم له ، كانوا ابعد الناس عن طلبها من ابيها ، وان تأخر زواجها والحالة هذه يؤيد ما يذهب اليه ، لان تقدم المرأة العربية في السن وتأخر زواجها كان من الامور المعيبة

عند العرب ، والدالة على قلة الخطاب ، وندرة الطلاب

والواقع ان هذا الرأي مغلوط من اساسه ، لان الفتيات اللواتي لا يبكرن الى الزواج في المجتمع الاسلامي يغلب ان يكن من اللواتي ينعمن بالجمال الرائع ، والحذق البالغ ، والذكاء الخارق ، وشرف المحتد ، وشغف الوالدين بهن ، ويغلب الى الظن ان لامنس انما يصدر حكمه هذا وفاقاً لما يعرفه من عادات مشارقة النصارى الذين يعيش بينهم ، وبين عادات هؤلاء والعادات الاسلامية فروق عظيمة ، ومن الحق ان نزيد على هذا كله ، ان تأخر فاطمة عن الزواج كان يعود طبعاً لشغف رسول الله بها وحبه لها ، وقيامها في بيت والدها مقام والدتها وزوجته ، تعنى بحاجات رسول الله ، وتتلطف في التمكين لراحته العائلية ، وما يتصل بهذا من حاجات والدها ويتعلق به

ويذكر لامنس في هذه المناسبة فقر رسول الله واملاقه ، وكيف انه لم يكن باستطاعته ان يخصص فاطمة بهدية سنية تحملها الى بيت عريسها ، ثم يذهب يتسائل اين ذهبت اموال خديجة وهي شيء كثير ، وقد نسي ان اموال خديجة لم تكن شيئاً وفيراً يصح ان يبقى له اثر بعد زواجها وعنايتها بتربية ابنائها وبناتها ، والنفقة على بيتها واعالة المساكين ومساعدة البؤساء والفقراء ثم التوفر على اعانة من مسهم الضر من المسلمين ، وانصراف رسول

الله وزوجه بعد النبوة الى بث الدعوة ونشر الاسلام ، مما لم يكن يساعد على التجارة والاتجار ، ومن الحق ان نذكر في هذه المناسبة ايضاً ان احداً من موءرخي السيرة لم يذكر ان رسول الله اوخديجة قد انصرفا بعد زواجهما الى الاتجار والتجارة ، وهذا ما يحملنا على القول ان محمداً وزوجه ، اخذا يصرفان مدى حياتهما الزوجية التي طالت خمسة وعشرين عاماً من هذا المال الموفور ، ولم يكن هذا المال الموفور بالعظيم القدر ليصح ان يدوم اكثر من خمسة وعشرين عاماً .

***

وفي الواقع ان رسول الله كان محباً لبقاء فاطمة في بيته ، وقد شرحنا ذلك في ما سبق من فصول هذا الكتاب ، ولما سمت فاطمه صلوات الله عليها الى الثامنة عشرة من عمرها خطبها ابوبكر الى رسول الله ، فقال له الرسول :

ـ يااابا بكر انتظر بها القضاء

ثم خطبها عمر بن الخطاب فقال له رسول الله مثل ذلك [1]

ووقف في هذه الاثناء الامام علي بن ابي طالب موقفاً مليئاً بالقلق والاضطراب ، فقد كان رضي الله عنه يحب فاطمة ويود الزواج بها ؛ وكانا قد ربيا في بيت النبي ؛ فكان والحالة هذه من اعلم الناس

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢ ، البلاذري في انساب الاشراف

بذ كائها وحذقها وشريف خلقها وعلو منزلتها ، ولكنه كان يخشى رفض رسول الله طلبه ، بعد ان سبق له ورفض لابي بكر وعمر مثل ذلك ؛ وقد يكون من الاسباب التي دعت رسول الله الى رفض طلبي ابي بكر وعمر من التزوج بفاطمة ، رغبته صلى الله عليه وسلم في ان يختار لها زوجاً شاباً من انصاره ورجاله واهل بيته ، واذا اضفنا الى ذلك تعلق الرسول بها ، وحبه لها ورغبته في بقائها لديه وبين يديه ، وجدنا في كل هذا سبباً لهذا الرفض الذي لم يكن منتظراً عند ابي بكر وعمر رضي الله عنهما

وقد عرض موءرخو السيرة الى هذا الامر ، وذكروا من اجوبة رسول الله لما فاتحه الشيخان بالخطبة قوله : انه ينتظر قضاء الله بها [1]

ويجتمع عندئذ وفي هذه الفترة من الزمن ، انسباء علي من بني هاشم ورهط من الانصار ، الى علي ويسألونه ان يخطب فاطمة بنت محمد فيقول علي :

ـ بعد ابي بكر وعمر ؟

فيذكرون له قرابته من رسول الله ، وحبه له ، ونشأته في بيته ، فتشجع علي رضي الله عنه ويمشى الى منزل الرسول حتى اذا ما احتواه البيت ، وسلم ، وجلس سكت لايحير جواباً

«١» البلاذري في انساب الاشراف

فيسأله رسول الله : ما حاجة ابن ابي طالب ؟

فيقول علي: ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال النبي : مرحباً واهلا

ولم يزده عليها، بل ظل رسول الله ساكتاً بعدها ؛ مما اضطر علياً الى العودة حائراً مدهوشا.

فلما اجتمع الى اهله واصدقائه وسألوه عن امره قال :

ـ ما ادري والله شيئاً ، تحدثت الى رسول الله بالامر ؛ فما زاد على قوله لي: مرحباً واهلا

فقالوا : يكفيك من رسول الله احداهما

وبشروه وطيبوا خاطره

***

ليس في كتب السيرة شيئاً كثيراً عن تاريخ الامام علي قبل النبوة ، وجل ما نعرفه انه ربي في بيت رسول الله ، وتخلق باخلاقه الكريمة ، ومضى نشأته الاولى بين رسول الله وزوجه وبناته ، يشارك صغار الرسول في مرحهم وطفولتهم ، وينعم بهذه الحياة الروحية السائغة التي نوفرنا على تصويرها في ما سبق من فصول ، وقد استغرب لامنس اقدام ابي طالب على تسليم ولده علي الى ابن عمه محمد يرعاه ويحوطه ، ويربيه في بيته ، وتناسى ان رسول الله قد ربي هو نفسه في منزل ابي طالب ، وقد راح ابو طالب يحوطه ويرعاه ،

ويقوم باعالته ، مع ماهو عليه من الفاقة والمسغبة ، فلما توفر لرسول الله زواجه بخديجة ، و كانت خديجة ذات يسر وثراء ، رأى من واجبه ان يخفف عن عمه بعض بنيه ، وان يأخذ احدهم اليه ، يقوم بعمله هذا بواجب لعمه عليه ، وفضل سالف ، وعطف سابق

وليس يهمنا انكار لامنس تربية رسول الله لعلي ابن عمه فان هذا من الامور التي انعقد عليها اجماع المؤرخين ، وليس يهمنا تسائل لامنس عن السبب في تأخر الامام عن الهجرة ، ولحوقه برسول الله متأخراً وفي حالة يرثى لها، [1] حتى تفطرت قدماه ، ذلك ان تأخر الامام معروف سببه ، فقد اخذ رضي الله عنه مكان رسول الله في منزله، ونام في فراشه، لما اجمعت قريش امرها على قتله ، ثم راح يتوفر بعد ذلك على العناية بفاطمة الزهراء وتسفيرها الى المدينة، وان كان ابن هشام يقول ان العباس هو الذي اتى بفاطمة الى المدينة [2] وقد ذهب غيره الى غير ذلك ، فقالوا انه زيد بن حارثة، وهذا الاختلاف ليس له كبير اهمية ، وقد ذهبنا الى التبسط فيه لتصور لقاريء كتابنا تشعب المذاهب ، واختلاف الاسانيد ، وتعدد الاخبار ، وصعوبة الوصول الى الحقيقة دون ما عناء ونصب كثيرين .

«١» المقريزي

«٢» سيرة ابن هشام ٨١٩

اما شجاعة الامام وبأسه وجرأته ، فليس بطوق لامنس ان ينكرها ، ولكنه يتسائل كعادته ، كيف تمكن الامام من البروز والظهور فجأة بهذه الجرأة والقوة البالغة ، وقد تربى رضي الله عنه تربية بيتية ليس فيها كرّ وفر ، ولا غزو وحرب ، وقد تناسى كما هو شأنه ، ان الجرأة والشجاعة من الصفات التي تخلق مع المرء خلقاً ، ولا تنال بالاقتبال والدرس والمخالطة ، ولا يبعد ان يكون الامام في اول نشأته قد تدرب على الكر والفر وركوب الخيل ، مع اعمامه وابناء اعمامه ، ومن المؤكد انه كانت له فرس يمتطي صهواتها ، ويطرّدها في شعاب مكة وصحراواتها ، يروج بواسطتها لما كان يحسه في نفسه من قوة وجرأة وبسالة ، ظهرت اماراتها ، واشتهرت راياتها واخبارها في حروب الاسلام في الجزيرة بعد الهجرة



- ٩ -

زواج فاطمة

لقد كان الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقيراً معدماً، ليس له مورد خاص ، ولا تجارة زاهرة يستطيع معها العيش المني الوفير ، ولعل هذا من الاسباب التي حدت به الى تأخير زواجه حتى كانت معركة بدر فابلى فيها بلاء مشكوراً عظيما ، ونال من غنائمها قدراً حسناً تمكن بعده من التحدث الى رسول الله برغبته في الزواج بفاطمة رضي الله عنها ، ولا يبعد ان يكون قد تحدث الى رسول الله بذلك قبل المعركة ، وهو ما يذهب اليه بعض المؤرخين وراح ينتظر ما تحمله اليه الايام من رزق يتمكن بواسطته من التوفر على استئجار منزل ، والعناية بتأثيثه وترتيبه بحيث يصبح اهلاً لاستقبال عروسه المقدسة

وكان من عادة رسول الله حين يريد تزويج احدى بناته ان يذهب اليها ويأخذ مكانه قريباً من مسكنها ، ثم يقول لها بصوت مرتفع :

ـ فلان ذكر اسمك

فاذا لزمت الفتاة السكوت واستمسكت بالصمت يكون ذلك دليلا على رضاها ورغبتها ، واما اذا خفقت الباب خفقاً رقيقاً فمعنى ذلك انكارها لهذا الزوج وعدم رغبتها به[١]

وقد كان موقف رسول الله من زواج فاطمة مثل موقفه من فتياته السابقات رضي الله عنهن ، فقد ذهب اليها يسألها رأيها في زواجها بعلي ، فلزمت الزهراء السكوت ، ولاذت بالصمت[٢] وكان ذلك منها اشارة القبول والرضى

ولكن لامنس يأبى ما اجمع عليه المؤرخون المحققون من امر زواجها ، فيقول ان سكونها كان مرده الاستغراب والذهول لا الرضى والقبول ، ذلك ان فاطمة لم تكن تنتظر ان يتقدم اليها زوج بعد ان ظلت مدة طويلة في بيت والدها ، لا يفكر احد بزواجها ، ولا يرغب مسلم في خطوبتها

ولكنه يعود فيناقض نفسه ، ويقول انها لم تلبث ـ بعد ما تولاها من ذهول واستغراب ـ ان ارعدت واظهرت الانكار وراحت تحاور رسول الله قائلة :

ـ لقد زوجتني من رجل فقير[٣]

«١» مسند الامام حنبل ج ٦ ـ ٧٨

«٢» تاريخ الخميس ج ١ ـ ٤٠٧ ، طبقات الصحابة ١٢ ج ٨

«٣» البلاذري في انساب الاشراف ٤٣١

ويزيد لامنس فيقول انها انتحبت رضي الله عنها ، وان رسول الله ذهب يهدىء من روعها ، ويذكر لها من صفات علي الحميدة خيراً كثيراً ويقول :

ـ انه سيد في الدنيا وانه في الآخرة من الصالحين ، وانه اكثر الصحابة علماً وافضلهم حلماً واولهم اسلاماً [١]

ولا ندري الحكمة من استشهاد لامنس وغيره من المستشرقين بهذه الحادثة التي يرويها البلاذري دون غيره من المؤرخين وكتاب السيرة ، فقد انعقد اجماع المسلمين على غير هذا ، ولا يبعد ان يكون هذا الخبر قد دس على البلاذري دساً من اقوام لهم مصلحة ظاهرة في اضعاف شأن امير المؤمنين رضي الله عنه ، والترويج الى ان فاطمة صلوات الله عليها لم ترض به زوجاً دون ما اعتراض وانكار

وليس احتجاجها صلوات الله عليها بفقر علي من الاسباب الكافية لرفضه زوجاً ، ذلك ان رسول الله نفسه كان فقيراً ، وقد اجمع المؤرخون على ان عائلة رسول الله لم تكن تتذوق من الطعام الا اقله ، وليس في هذا كبير امر ولا غرابة ، ذلك ان اموال خديجة رضي الله عنها قد ذهبت في السنوات التى سبقت الهجرة النبوية ، وكان رسول الله وزوجه يتسابقان في الكرم

«١» البلاذري في كتابه انساب الاشراف

والبذل واعانة البائسين ، واعالة المنكودين واليائسين ، ولم يكن لدى خديجة رضي الله عنها مال قارون ليظل ابد الدهر ، وفاطمة نفسها كانت تعلم فقر والدها ، وتعلم انه كثيراً ما كان يود لو يكون لديه مال ليصرفه في وجوه البر والاحسان على المستحقين ، فكيف نذهب الى قبول هذه الرواية ، ونؤمن بان فاطمة قد انكرت حقاً زواجها بعلي لفقره ، وهي مثله فقراً !! ثم انها كانت اعلم الناس بعلي ومناقبه وعلمه وفضله ، وحب رسول الله له ، مما يستبعد معه انكارها للزواج به ، وهي على مثل اليقين من ان هذا مغيظ رسول الله ، وفاطمة رضي الله عنها ابر بوالدها ، واحفظ ونه ، واكبر من ان تعمل ما يسيئه ويؤذيه

فرواية لامنس والحالة هذه باطلة فاسدة ، وليس في ما لدينا من كتب السيرة الموثوق بها ما يؤيدها ، وقد انعقد اجماعها على انها صلوات الله عليها قد لاذت بالصمت لما كلمها رسول الله بشأن زواجها ، وان سكوتها هذا كان علامة القبول والرضى .

***

وارسل رسول الله يطلب علياً اليه ، فلما مثل بين يديه سأله قائلا :

— هل عندك شيء ؟

فاجابه الامام انه لا يملك سوى فرسه ودرعه، و كانت درعه مما افاء الله عليه من غنائم بدر

فامره رسول الله ببيع الدرع ليجهز عروسه بثمنها

فهرع علي رضي الله عنه الى السوق ، فباع الدرع الى عثمان ابن عفان باربعمائة وسبعين درهماً ، وعاد بالثمن معقوداً في طرف ثوبه ، ووضعه امام رسول الله وهو يقول :

ـ ها هو بدل الدرع يارسول الله

فقبض الرسول بعض الدراهم ، وناولها (بلالاً) ليشتري بعض الطيب والروائح، ويسلم الباقي الى (ام سلمة) لمشترى الجهاز.

و كان الرسول محباً للعطور جداً ولا يقبل الا احسنها واذ كاها رائحة [1]

ولما تم مشترى الجهاز ، دعا رسول الله جمعاً غفيراً من الانصار لحضور العرس وخطبهم الخطبة الآتية :

« الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ؛ المطاع سلطانه، المهروب اليه من عذابه ، النافذ امره في ارضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميزهم باحكامه ، واعزهم بدينه ، واكرمهم بنبيه ، ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وامراً مفترضاً ، وحكماً عادلا ، وخيراً جامعا ، وشج به الارحام . والزمها الانام ، فقال عز

«١» مسند حنبل ج ٦ ــ ٢٠٧

وجل (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً و كان ربك قديرا)وامر الله تعالى يجري الى قضائه ؟ وقضاؤه يجري الى قدره ، ولكل قضاء قدر ، ولكل قدر اجل ، ولكل اجل كتاب، ثم ان الله تعالى امرني ان ازوج فاطمة من علي ، واشهد كم اني زوجت فاطمة من علي على اربعمائة مثقال فضة ، ان رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة

ولما انتهى رسول الله من خطبته ، دعا لهما بحسن المعاشرة ، وبالذرية الصالحة المباركة .

وبعد ان تم عقد الزواج احضر رسول الله للحاضرين من الانصار والمهاجرين وعاء فيه بعض التمر ، وقدمه اليهم قائلا:

ـ تخاطفوا .

وعلى هذه الصورة انتهى عقد الزواج ، فتفرق المدعوون يدعون للعروسين بالسعادة والهناء والذرية الطاهرة المباركة ، ثم طلب رسول الله من ام سلمة ان تذهب هي بكريمته الى دار علي، وان تخبرهما بانه آت اليهما بعد قليل

فمضت ام سلمة بفاطمة صلوات الله عليها الى دار علي رضي الله عنه،وذهب رسول الله في اثناء ذلك يصلي صلاة العشاء ، فلما انتهى من صلاته ، مشى الى دار علي ، وفي يده قربة من الجلد

تستعمل لسقي الماء ، فلما وصل الدار قرأ عليها سورتين من القرآن الكريم وبعض الادعية ، ثم امر العروسين ان يشربا ؛ ويتوضآ من الاناء ، ثم اخذ قليلاً منه ونثره على رأسيهما ، ولما هم بفراقهما بكت فاطمة فحنى عليها رسول الله وقال لها :

ــ اي بنتي قد تركتك وديعة عند رجل ايمانه اقوى من ايمان اي انسان آخر ، وعلمه اكثر من علم الجميع ، انه افضل قومنا اخلاقاً واعلاهم نفساً .

وما كان بكاء فاطمة الا لفراق رسول الله لها ، ومغادرتها بيته ، وهي عاطفة كثيراً ما تعرض للنساء قبل الزواج وحين تنتقل الواحدة منهن الى دارها الجديدة

***

اما تاريخ الزواج فقد وقع وفاقاً لما اجمع عليه المؤرخون بعد معركة بدر[1] وكانت الزهراء في الثامنة عشرة من عمرها وعلي في الخامسة والعشرين من عمره

***

ونختم فصلنا هذا بما ذهب اليه لامنس من القول ان علياً رضي الله عنه كان مثل زوجه الزهراء بعيداً عن الجمال ، غريباً عن

«١» المسعودي ج ١ ــ ٤٠٣ ، طبقات الصحابة ح ٨ ــ ١٣ ، ويذهب غيرهم الى انه وقع بعد معركة احد ، والاول الاصح والارجح

الملاحة ، كان قصيراً ، و كانت العرب تفتخر بطول القامة ، و كان صدره القصير يقوم على بطن منتفخة جداً ، ومن اطراف ذلك الصدر تخرج اذرع رقيقة دقيقة ، وقد وصفه ابن قتيبة في كتابه المعارف بانه (كان افطس الانف دقيق الذراعين) وذكر لامنس ما قالته احدى النساء وقد رأت علياً لاول مرة

ـ من هذا الذي كأنه كسر ثم جبر ؟ [1]

والواقع ان هذه الكلمة لم تقلها احدى النساء وانما قالها المنذر بن الجارود لما خرج ينظر الى جيش علي يوم دخوله الى الكوفة قال :

ـ ثم اقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضاً ، واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات ، في اوله راية كبيرة يتقدمهم رجل كأنه كسر وجبر

قال ابن عائشة وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره الى الارض اكثر من نظره الى فوق ، كذلك تخبر العرب في وصفها اخبرت عن الرجل انه كسر وجبر

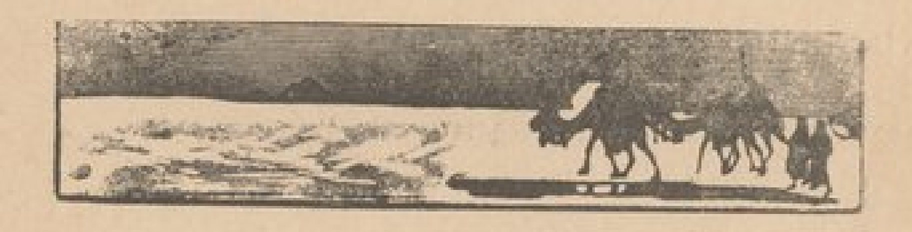
واذا كان هذا تعريف صفة (كسر وجبر) عند العرب ، فاني لا

«١» ابن قتيبة في كتابه المعارف

(٢) المسعودي ح ٢ ـ ٨

اراها صفة يصح ان يطلق على صاحبها قبح الوجه والبعد عن الملاحة والجمال !!

ولكنها اساليب النقد الحديث عن بعض المستشرقين، وابعدهم ذكراً ، واثبتهم قدماً في هذا الاسلوب الاب لامنس ، وسنعرض لهذه الاساليب الغربية في النقد المعاصر لتاريخ الاسلام والعرب في فصل خاص من كتابنا هذا



— ١٠ —

في بيت فاطمة

لقد كان زواج الامام على بن ابي طالب بفاطمة بنت رسول الله عن حب وتقدير ، ولم يكن الامام ليتقدم الى زواج من لا يحب ، ولا كان رسول الله ليزوج فتاته المحبوبة من لا يرغب بها ولا يرضاها ، وما ذهاب لامنس الى انكار هذا والترويج لسواه الا وفاقاً لنزعته في الكيد لكل من كان رسول الله يحبهم ، والغض من كل من راح المسلمون منذ اقدم العصور يشرفونهم ويجلونهم ، وهي خطة درج عليها هذا المستشرق في كل كتبه؛ فهو ابداً وفي كل سانحة يعمل ما في الامكان وما هو فوق الامكان للاضعاف من شأن فاطمة والامام ، والغض من مقامها والحط من مقاديرها ، فلا يتورع عن وصف الامام بقلة الذكاء وبلادة الذهن ، وقد كان الامام باجماع المؤرخين والمسلمين والمتقدمين والمتأخرين من اعلم الناس واثقفهم ، وليس جهله لاحابيل السياسة ، ومكايد الادارة من الامور التي تحط من مقامه ، فليس لهذا كبير امر في تقدم العبقرية ، وتوفر الذكاء ؛ ولكن الامام كان اضن بدينه ،

واحفظ لواجبات الخلافة من ان يتنزل بها الى مهاوي الخديعة والكذب، و كان ابر بالمسلمين واحفظ لمقاماتهم من ان يولي عليهم من ليس يكون من اشرافهم واصحاب الكرامة والاخلاق فيهم.

يقول لامنس : ان الزواج لم يكن لامعاً زاهياً ، يريد ان يروج بذلك الى ان احداً من الزوجين لم يتقبل الآخر ، وانما حملا على ذلك حملا ، وهذا قول قد اجمع المؤرخون على نقضه وتكذيبه، ولننظر الى ما يستند اليه لامنس في قوله هذا : يقول ان فاطمة لم تتزوج الا وهي في العشرين من عمرها ، وقد اظهرنا فساد هذا القول وذكرنا ما اجمع عليه المؤرخون من انها تزوجت في الثامنة عشرة، وما تأخر زواجها الا لحب رسول الله بها ورغبته في قربها ، ويزيد لامنس فيقول :

« لقد كان يستحيل على زواج تم على هذه الصورة ، ان يكون سعيداً ، لذلك لم تلبث المشاحنات والخصومة ان دخلت البيت واحتلت مكانها فيه» اما حجته في عدم وجود سرير للعروسين في البيت[1] كأن السرير من ضروريات السعادة ، وهو امر لم يذهب اليه غير لامنس من المستشرقين

ويندفع لامنس في كيده ؛ فيذكر فقر الزوجين ، وقد كان اكثر الناس فقراء في ذلك الزمن ، ويذكر فيما يذكره : « ان

«١» منتخب الكنوز ج ٥ ـ ٥٦

رسول الله ، لم يتوفر على دفع هذا الفقر عنها » كأنما كان ذلك بطوقه وقد كان رسول الله اكثر منها فقراً ، ولكن لامنس يأبى الايمان بفقر رسول الله فيقول :

— انه في الوقت الذي كان فيه الفقر مخيماً على بيت علي وفاطمة ، كان النبي يغمر بالحلي امامة او (هالة) حفيدته من بنته زينب

ونذهب نطوي كتب السيرة وغيرها نبحث على خبر هذه الحلى التي غمربها رسول الله (هالة) بنت زينب؟ فنجد في البخاري من حديث عن ابن سعد : «انه صلى الله عليه وسلم دخل على اهله ومعه قلادة جزع فقال: لاعطينها احبكن الي ، فقلن يدفعها الى ابنة ابي بكر ،فدعا بابنة ابي العاص (هالة) فعقدها بيده »

هذا هو الخبر الذي حاك لامنس حوله كل هذه الضجة ، قلادة من الجزع، لا اظنها تساوي درهما ، وهي مما يتحلى به الصغار لا الكبار ، وكانت هالة اصغر آل البيت صلوات الله عليهم .

اما ما يذكره لامنس من تعدد الخلاف بين الزوجين ، فان صح الخبر ، ونحن نشك بصحته ، فما نعلم ان احداً من الناس لا يختلف مع زوجه ، وهذا رسول الله نفسه لم يخل من ذلك ،وليس الى دفع هذا من سبيل ، ولكن وقوع الاختلاف لا يعني كره الزوجين لبعضهما وانما يدل في كثير من الاحايين على الحب والمودة

وشدة الغيرة ·

***

هذا بيت فاطمة بنت محمد بغشاه الامام في فترات النهار واكثر الليل متحبباً الى زوجه ، مسكناً روعها ، مسلياً لها ، متوسلا في ان ينال مثل مثوبتها في الصبر واحتمال الفقر ، والاطمئنان الى هذه الحياة الكاسية القادحة ، وهذا الجو المذيب القاتل ، الذي كان يملأ المدينة ، فلا يطيق معه المهاجرون صبراً ، حتى نالهم من اذاه شر شديد ، وامراض بليغة ، وحتى ذهب رسول الله يدعو ربه الى ان يحبب المدينة لانصاره ، وان يجعلها لهم سلاماً وامنا ·

في هذا الجو المثقل بالالم والمتاعب ، مشت فاطمة الى منزلها الجديد تتوفر على ان تخلع عليه جواً جديداً من الطمانينة والراحة والسعادة والهناء ، وقد ذهب الامام نفسه بعمل عملها ويساعدها في ما تحاوله ، وكان رضي الله عنه يحاول التشبه برسول الله في بيته ، وكانت حياة رسول الله في داره وبين نسائه المثل الاعلى في المودة والموادعة والمواتاة ، وترك الكلفة وبذل المعونة ، واجتناب هجر الكلام ومره ، وكان كثيراً ما يقول : خيركم خيركم لاهله ، وانا خيركم لاهلي

وكان رسول الله براً بالنساء ، شفوقاً بهن ، رحوماً عليهن ، وقف بينهن يوماً وقد جئن يبايعنه على ان يأتمرن باوامر الله ، ويجتنبن

نواهيه ، فقال عليه الصلاة والسلام :

— فيما استطعتن واطقتن ؟

فقلن : الله ورسوله ارحم بنا من انفسنا [١]

وسئلت عائشة ما كان عمل رسول الله في بيته فقالت :

« كان في مهنة اهله حتى يخرج الى الصلاة »

تريد بذلك انه كان يعاونهن ويعمل معهن

وكان من التبسط ورفع الكلفة انه كان يستبق نسائه الى القيام بالعمل عنهن ومساعدتهن

فلا عجب ان يساوق الامام رسول الله في خلقه واخلاقه ، وليس من شك في انه كان يساعد زوجه فاطمة في اعمال البيت واغراضه ، فاذا راحت فاطمة تتولى الطحين والعجين ، ذهب الامام بنزع الماء ويحتمله ويهيئه

ولكنها صلوات الله عليها لم تكن من القوة والصحة بحيث تقوم باعمال البيت جميعها ، خصوصاً وانه لم يكن لديها خادم او خادمة ، ولا كانت حالة الزوجين المالية لتساعدهما على استخدام الخادم ، وما تمكنا من ذلك الا بعد فتح مكة ، وحين توفر للامام قسط موفور من الغنائم في الغزوات الاسلامية الاولى

«١» كتاب طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٤ — ٦

لذلك نراها تكلف امرأة من بني كنانة بارضاع الحسين [١]

***

ولقد انشرح صدرها رضي الله عنها لما ولد لها بكرها ، فقرت به عيناً ، وظهر الانشراح والحبور والغبطة على وجهها ؛ وذهبت تحاول الاحتفال بالمولود الجديد ، والقيام ببعض التضحيات ، ولكن رسول الله نصح فتاته بقص شعر المولود ، وتوزيع ثقل هذا الشعر فضة على الفقراء والمساكين من المهاجرين الاولين ، وامرهم رسول الله بمثل ذلك عند ولادة الحسين ، فقد تصدق الرسول بزنة شعره فضة [٢]

***

وكما كان الرجل يجاذب المرأة امر العمل وتدبير المنزل ، كذلك كانت تجاذبه شؤون العالم وجد الحياة

ففي ساعات الوغى ، وتحت ظلال السيوف ، كانت المرأة تسير مع الرجل جنباً الى جنب ، تروي ظمأه ، وتأسو جراحه ، وتجبر كسره ، وترقأ دمه ، وتثير حميته ، وتهيج حفيظته ، وربما غشيت حر القتال ، واصطلت جمرة الحرب ، وصالت بين الصفوف

«١» منتخب الكنوز ج ٧ — ٩٢ ، واما الاغاني فيقول ان لبابة زوجة العباس قد ارضعته ج ٧ ص ٣٠ ، ١١٢

«٢» حنبل ج ٦ ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢ ، البلاذري في انساب الاشراف ، المستشرق جولد هيزر ٤٩ — ٥١ في مجلة التاريخ الديني

وعرضت نحرها للحتوف ، وصدرها للسيوف ، فكانت لها مواطن صادقات ومواقع صالحات

وقد طوبت صحف السير والتاريخ على كثير من فضليات النساء المسلمات ، خرجن في رفقة رسول الله الى غزواته ليداوين المرضى ، ويأسون الجرحى ، وليسقين الماء ، ورحن بأجر المجاهدين في سبيل الدين والاسلام ، وقد ذكر الواقدي فاطمة في معركة (أحد) تضمد جراح المسلمين بمساعدة زوجها الامام علي ، ويذكرها في موضع آخر تضمد جراح رسول الله بعد عودته من المعركة في باحة المسجد في المدينة [1]

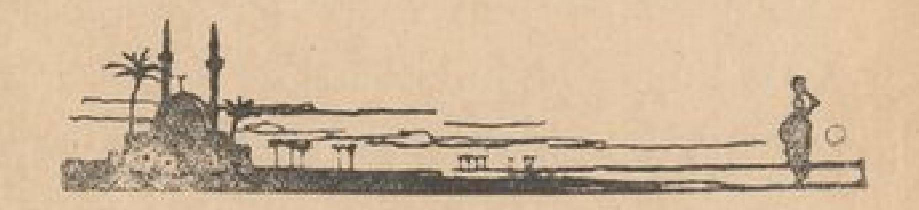
وينكر لامنس هذا الخبر ، ويقول ان فاطمة لم تكن في معركة (أحد) لان ابن هشام والطبري لم يذكرا لها خبراً في تاريخهما ، ونحن لا نرى رأيه ؛ فان عدم ذكر ذلك لا يعني نفي الخبر ؛ خصوصاً وقد ثبت في التاريخ ان كثيرات من النساء كن يذهبن مع الجيش ويحاربن بين صفوفه ، وليس لاكثرهن ذكر في كتب التاريخ والسيرة .

***

ولقد كان مقتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله في معركة

«١» الواقدي ٢٤٦ـ ٢٤٥ طبع فون كريمر

أحد ، وهو من اكبر ابطال الاسلام ، سبباً في عودة الكآبة الى فاطمة رضي الله عنها ، فقد كانت صلوات الله عليها تقدره وتحبه وتعرف اثره في رفع شأن الدين ، والذود عن والدها رسول الله والمدافعة عنه ، لقد ابكاها مقتله ، وقرّح عينيها فقده ، وخلع عليها جواً جديداً من الكآبة ، بان ذكرها بوالدتها خديجة ، وما كانت مآقيها قد جفت عليها ، ولا كانت قد تناستها .



- ١١ -

ابناء فاطمة وبناتها

رزقت فاطمة بنت الرسول من البنين من زوجها الامام علي بن ابي طالب خمسة اولاد ؛ الحسن والحسين والمحسن [١] وزينب الكبرى وام كلثوم الكبرى ، وقد ولد الحسن في السنة الثالثة من الهجرة وولد الحسين لخمس خلون من شعبان سنة اربع من الهجرة

ولما علم رسول الله بولادة الحسن اسرع الى منزل فاطمة وحمل الطفل بين يديه ؛ واذن في اذنه [٢] ثم ذوّقه لعابه وهو ما يسمونه التحنيك عند العرب [٣]

ووصل النبي متأخراً عند ولادة الحسين فلم يحنكه ، ذلك ان فاطمة كانت قد استبقت الوقت وامرعت فارضعته [٤] وكان الامام يقول : « ان الحسين اشبه اولادي بي » [٥]

«١» ينكر بعض المؤرخين وجود المحسن ، ولكن غيرهم يثبته كالمسعودي وابو الفداء

«٢» مسند احمد بن حنبل ج ٦ ص ٣٩١

«٣» صحيح البخاري ، مسند حنبل ، البلاذري

«٤» منتخب الكنوز ، البلاذري

«٥» « « «

واما المحسن وهو الولد الثالث ، فقد اختلف المؤرخون في وجوده كما قدمنا ، وان كان اليعقوبي والمسعودي وغيرهما يوء كدون وجوده [١] ويقول موءلف كتاب (الاسناد في معرفة حجج الله على العباد) ان فاطمة رضي الله عنها اسقطت المحسن بعد وفاة رسول الله ، ولعلها قد اسقطته من فرط جزعها واضطرابها

وقد اراد الامام رضي الله عنه لما ولد له الحسن ان يسميه حرباً او سماه حرباً ، فجاء رسول الله فقال :

— اروني ابني ما سميتموه ؟

فقال علي : لقد سميته حرباً

فقال رسول الله : بل هو حسن

ولما ولد الحسين سماه علي حرباً ايضاً ، ولكن الرسول بدل اسمه واسماه الحسين [٢]

***

و كان رسول الله محباً للحسنين ، و كانا في حياة رسول الله طفلين صغيرين ، فقد اقام الحسن معه نيف وسبعة اشهر ، واقام الحسين ست سنين وسبعة اشهر ، وقد مات رسول الله ولم يكمل الحسين سبع سنين [٣]

«١» المسعودي ج ٢ ص ٩٦

«٢» مسند احمد بن حنبل

«٣» ابن تيمية في منهاج السنة النبوية

وقد روى عبد الله بن شداد عن ابيه ان رسول الله خرج يوماً في احدى صلاتي العشاء ، وهو حامل حسناً او حسيناً ، فتقدم فوضعه ، ثم كبر للصلاة فاطال سجدة الصلاة ، فرفعت رأسي فاذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودي ، فلما قضى الصلاة قيل :

ــ يارسول الله انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة اطلتها حتى ظننا انه قد حدث امر ، او انه يوحى اليك

فقال : كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت ان اعجله حتى يقضي حاجته [١]

وروى نور الدين علي بن محمد الشهير بابن الصباغ في الفصول المهمة [٢] عن زياد بن ابي زياد قال :

ــ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة ، فمر على بيت فاطمة ، فسمع حسيناً يبكي فقال :

ــ ألم تعلمي ان بكاءه يؤذيني ؟

وقال البراء بن عازب : رأيت رسول الله حامل الحسين بن علي على عاتقه وهو يقول :

ــ اللهم اني احبه فاحبه

«١» تيسير الوصول الى جامع الاصول ج ٣ ص ٨٥

(٢) الفصول المهمة ١٧٧

وروى الترمذي في سننه في مناقب الحسن والحسين ، والبغوي في مصابيح السنة في مناقب اهل البيت صلوات الله عليهم ، عن اسامة ابن زيد قال :

ــ طرقت (باب) النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الحاجة فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا ادري ما هو ، فلما فرغت من حاجتي قلت :

ــ ما هذا الذي انت مشتمل عليه ؟

فكشفه فاذا هو حسن وحسين على وركيه وقال :

ــ هاذان ابناي وابنا ابنتي ، اللهم اني احبهما فاحبهما ، واحب من يحبهما

وعن انس بن مالك ان رسول الله كان يقول لفاطمة صلوات الله عليها : (ادعي لي ابنيَّ) فاذا ما جآء اليه ، شمهما وضمهما اليه .

وكان رسول الله يخطب المسلمين يوماً فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان احمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال :

(صدق الله انما اموالكم واولادكم فتنة) نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم اصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما

وعن ابي سعيد الخدري قال :

ــ جاء الحسين يشتد ورسول الله يصلي فالتزم عنقه فقام واخذ

بيده فلم يزل يمسكه حتى ركع

وروى ابو يعلي عن عمر قـال : رأيت الحسن والحسين على عاتقي رسول الله فقلت (نعم الفرس راحلتكما)

وروى ابو عمر بن عبد البر القرطبي في الاستيعاب [1] عن ابي هريرة انه قال :

— ابصرت عيناي هـاتان ، وسمعت اذناي رسول الله وهو آخذ بكتفي حسين وقدماه على قدم رسول الله ، وهو يقول ترّق ترق عين بقة [2] فقال فرقي الغلام ، حتى وضع قدميه على صـدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له رسول الله افتح فاك ، ثم قبله وقال: اللهم احبه فاني احبه

وقال علي بن الحسن بن عساكر في التاريخ الكبير [3]

— روى الطبراني عن جعفر بن محمد عن ابيه ان رسول الله بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس ، وعبـد الله بن جعفر وهم صغار لم يبلغوا ، ولم يبايع صغيراً سواهم

وروى ابن ماجة في السنن وابن عساكر في التاريخ [4] وابو

«١» ج ١ ص ١٤٨

«٢» اي اصعد ياصغير الجثة

«٣» ج ٤ ص ٣٢٣

«٤» ج ٤ ص ٣١٥

الحسن علي بن فخر الدين الاربلي في كشف الغمة [١] عن يعلي بن مرة العامري ، انه خرج مع رسول الله الى طعام دعوا له ، فاذا حسين في السكة مع غلمان يلعب ، فتقدم رسول الله امام القوم ، وبسط يديه ، فجعل الغلام يفر ها هنا وها هنا ، وجعل رسول الله يضاحكه حتى اخذه فوضع احدى يديه تحت قفاه والاخرى تحت ذقنه وقبله ، وقال حسين مني ، وانا من حسين ، احب الله من احب حسيناً ، حسين سبط من الاسباط

وروى سليمان الحسيني البلخي في ينابيع المودة [٢] عن ابي هريرة ، كان النبي يدلع لسانه للحسين فيرى الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، فقال عينية بن بدر : اراه يصنع هذا بهذا ، فوالله ان لي لولد وما قبلته قط

فقال رسول الله : من لا يرحم لا يرحم

***

ولقد توفرنا على بسط هذه الاخبار ندل بها على حب رسول الله لاولاد فاطمة صلوات الله عليهم ؛ وفي كتب الاخبار والسير [٣]

«١» ص ١٩٤

«٢» ص ٢٢١

«٣» راجع سبط ابن الجوزي ، وابن عبد البر في الاستيعاب ، ومسند حنبل ، والبلاذري في انساب الاشراف ، والطبري وغيرهم وغيرهم

وليس بنكر لامنس هذه الاخبار ، ولكنه يردها الى ان رسول الله لم يكن موفقاً في حياته الزوجية، فكان عليه والحالة هذه ان ينصرف لابناء فاطمة يصرف معهم بعض الوقت ، ويداعبهم على قدر ، ويأنس بهم ما استطاع الى ذلك سبيلا

وليس يهمنا ان نعرض لرأي لامنس هذا وهو غاية في الاختلاق ، لان رسول الله كان موفقاً حقاً في حياته الزوجية ، واذا وقفنا في السيرة على بعض اخبار يصح ان تعني سوء التفاهم احياناً ، فهذا لم يكن بين رسول الله وزوجاته ، وانما كان بين بعضهن بعضاً ، وقد اشارت كتب السيرة الى حادث واحد ، وايده القرآن ايضاً ، وانتهى الامر فلم نعد نستمع الى مثل هذا بعد ذلك ابداً .

ولقد كان رسول الله محباً لابناء فاطمة ، لان فاطمة كانت احب ابنائه وبناته اليه ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يرى في غير اولادها ذرية من صلبه فكان لذلك يقول :

— ان الله جعل ذرية كل نبي في صلبه ، وجعل ذريتي في صلب علي «١»

وقال صلى الله عليه وسلم عن الحسنين : (هما ريحانتي في الدنيا)

وقد ذهب بعض المؤرخين يؤكدون شبه الحسنين بجدهم رسول الله ، فالحسن كان يشبهه وجها ، والحسين كان يشبهه من

«١» مسند حنبل

سرته الى قدمه [١]

وجاء في صحيح البخاري [٢] ان فاطمة وابا بكر كانا يقولان ان الحسن لم يكن يشبه علياً

واحب الصحابة الحسنين لحب رسول الله لهما ، حتى ذهب ابو هريرة بقبل الحسن من سرته ، لما رأى رسول الله يفعل ذلك [٣]

وتصف كتب السيرة والتاريخ كيف كان رسول الله يكثر من مداعبة الحسنين ، ويجعلهما يمران من بين رجليه ، ويأذن لهما وقت الصلاة بالصعود الى ظهره ، حتى اذا فعلا ذلك اطال السجدة يحاول بذلك ان يطيل مرحهما ، وعند نهاية الصلاة يضعهما على ركبتيه ويقبلهما ، ويلحس لسانهما ؛ ويكثر من ذلك اكثاراً يدلنا على حبه لهما وسعادته بوجودهما بين يديه

ونظن في كل ذلك ما يدل دلالة قاطعة على حب رسول الله لابناء فاطمة ، وحبه لفاطمة صغرى بناته [٤]

---

(١) انساب الاشراف ٤٤٨

(٢) البخاري ج ٢ ص ٤٤٦

(٣) مسند حنبل ج ٢ ص ٢٤١ ، البلاذري ص ٥٨٨

(٤) ذهبنا في غير مكان من هذا الكتاب الى القول بان فاطمة هي صغرى بنات رسول الله ، وذهب بعض المؤرخين كما قدمنا الى انها كانت الثالثة ، وبعضهم قال الاولى ، ونظن ان الحقيقة هي بين الرأيين الاولين ، ذلك ان الاجماع قد انعقد على انها اما ان تكون الصغرى او الثالثة

ومما يذكر بهذه المناسبة من حب رسول الله لعلي وفاطمة وابنائهما ، ان علياً سأل رسول الله اذا كان يحبه اكثر من فاطمة، ونظن ان هذا السؤال كان في معرض الدلال ليس الا ، فاجابه رسول الله :

— فاطمة احب الي منك ، وانت اعز علي منها

ونرى في سند آخر، عن لسان رسول الله انه كان يقول: فاطمة اعز لدي ، ثم علي ، وكان رسول الله يظهر عطفه هذا في كل مناسبة ، فقد حدث مرة ان ذهب لزيارتهما في منزلهما فوجدهما يغطان في نومهما، ووجد الحسن يبكي ويطلب طعاماً ، فاسرع رسول الله الى غنمة فحلبها وحمل الى الصبي من حليبها ما ارواه ، ولم يعمد الى ايقاظ الوالدين رحمة بهما، ورغبة منه في ان يستمتعا بما يستحقانه من الراحة .

***

وظلت الحياة في بيت فاطمة وعلي هادئة سائغة ، فيه شيء من البؤس ، وفيها بعض الفقر ، ولكنها كانت حياة روحية رفيعة ، حتى ايسر المسلمون وكثرت الغزوات ، فتمكن رسول الله من ان يخصص لفتاته المحبوبة راتباً سنوياً صغيراً ، تستعين به على مصاريف البيت وتربية الاولاد

وتذكر كتب السيرة فيما تذكره عن فاطمة انها كانت في

الجيش الذي زحف به رسول الله على مكة وشاهدت تسليمها ،
وحضرت والدها رسول الله يتوضأ فيها

ولا بد من الاشارة في هذه المناسبة الى حضور ابي سفيان لمنزل فاطمة قبيل فتح مكة ؛ وحين احست قريش بان رسول الله لن يتركها بعد ما نقضت عهده ؛ وخفرت ذمته ، فارسلت ابا سفيان لتهدئة رسول الله والعمل على تأخير الزحف ، فقصد هذا ابا بكر وعمر فلم يغنيا عنه شيئاً ، فمشى عندئذ الى بيت فاطمة يسالها ان تبذل نفوذها لدى والدها في حقن دماء قريش ، ويرجوها ان تسال رسول الله ان يكف عنهم ولا يعرض لهم بسوء ولا نكر

وفي هذا ما يدلنا على نفوذ فاطمة رضي الله عنها ، عند والدها ولولا ذلك لما مشى كبير قريش وزعيمها اليها يسالها الوساطة وقد ابت فاطمة ان تتداخل في هذا الامر ، وقالت له :

— لا يجير على رسول الله احد



- ١٢ -

فاطمة امام الهول العظيم

لقد توفرنا في ما سبق لنا من كتب على التبسط في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] واشرنا الى هذا الهول العظيم ، والمصيبة الكبرى التي ليس بعدها مصيبة ولا هول ، نصيب الامة الاسلامية في نبيها وحبيبها ووالدها وشفيعها ومعينها وناصرها ، ومن ضحى بحياته ونفسه في سبيلها ، وقلنا كيف استاذن رسول الله نسائه لما اشتد به المرض ، ان يمرض في بيت عائشة فاذن له ، وكانت فاطمة الى جانبه لا تفارقه [٢] تعنى به وتخدمه ، وتلازمه حتى اذا اشتد به الوجع ، وجعل ياخذ الماء بيده يجعله على رأسه ، ويقول : (وا كرباه)

قالت فاطمة بنت محمد ، وقد خنقتها العبرة ، وبرّح بها الالم وغمرها الحزن والتفجع

— وا كربي لكربك يابتي

فيقول لها رسول الله مهدئاً خاطرها ، مسلياً لها ، متحبباً

---

(١) محمد النبي العربي ص ٢٢٤ ، وابو بكر الصديق الفصل الاول

(٢) البلاذري في انساب الاشراف

اليها : (لا كرب على ابيك بعد اليوم)

***

وتعود فاطمة الى نفسها فتذكر ما حدثها به والدها منذ ايام، ويوم جاءت لزيارته ، وذلك قبيل مرضه ، وكانت معه عائشة ، فلما ابصرها قال :

— مرحباً بابنتي .

ثم اجلسها الى يمينه واسرّ لها حديثاً فبكت ، ثم اسرّ لها حديثاً آخر فضحكت

فقالت عائشة ام المؤمنين :

— ما رأيت كاليوم فرحاً اقرب من حزن !! وسألتها عما قال رسول الله لها

فقالت فاطمة : ما كنت لافشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره ، وتذكر فاطمة ما قال لها رسول الله لما اسر لها حديثه :

« ان جبريل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة ، وانه عارضني العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلي ، وانك اول اهل بيتي لحوقاً بي ، ونعم السلف انا لك »

فلما بكت فاطمة قال رسول الله :

— الا ترضين ان تكوني سيدة نساء هذه الامة؟

ولقد ضحكت من حديثه هذا وذكرته الان ، واطلقت نظرها الى رسول الله ، وهو يئن من وجعه ، فعلمت انه مفارقها حقاً ، وان لقائه بربه قريب

وتحاول فاطمة ان تهديء من روعها ، وتحار كيف تكفكف دموعها التي تسابق على خديها ، حتى لا يراها والدها فيحزنه جزعها ، ونسيئه كآبتها ، ولكن انى لها ذلك ؟ وهي امام هول لا تستطيع له رداً ، ومصيبة خفت امامها مصائب الناس اجمعين

وهذا رسول الله قد ثقل عليه المرض ، وفتحت له ابواب السماء واقبلت عليه الملائكة افواجاً تحمل اليه روح الله ورحمته ورضوانه وتبشره بجوار ربه ، فتصعد روحه الكريمة الطاهرة الى الملأ الاعلى والى جوار ربه جل جلاله وعزت قدرته

وتبكي فاطمة بنت محمد وقد فقدت الرائد الرؤوف والوالد الحنون ، ويلم بها الحزن ، ويغشاها الجزع فتصعق في مكانها ، ويحجب بينها وبين الناس ؟ حتى اذا افاقت ، احست باوراق السعادة تناثر امامها ، وتهرب من حياتها ، واذا هي كئيبة باكية ما يذكر التاريخ انها ضحكت بعد وفاة والدها ، حتى لحقت به .

وزارت صلوات الله عليها قبر ابيها بعد وفاته بايام ، فاخذت بيدها قبضة من تراب القبر فجعلتها على عينيها ووجهها واخذت تبكي وتقول :

ماذا على من شمّ تربة احمد ألاّ يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو انها صبت على الايام عدن لياليا

وفي هذا الشعر ما فيه من تفجع ولوعة وحزن ، فقد ذكرتها صلوات الله عليها وفاة والدها رسول الله ، بوفاة والدتها من قبله ، فوفاة عمها حمزة بعد ذلك ؛ وكانت فاطمة تحب والديها حباً يكاد يكون اقرب الى العبادة ، وتحب حمزة عمها ، لنصرته لوالدها ، ومعونته ، وما انصرف اليه من تعزيز الاسلام وهو ما يزال غضاً في اول نشأته وبدء ظهوره

***

ووقفت فاطمة صلوات الله عليها على القبر فاطالت الوقوف ، وبكت فاطالت البكاء ، وشهقت فاكثرت الشهيق ، والتاعت فالتاع للوعتها من حولها من الناس ، ثم راحت ترثي رسول الله وتقول :

اغبر آفاق السماء وكوّرت شمس النهار واظلم العصران
والارض من بعد النبي كئيبة اسفاً عليه كثيرة الاحزان
فليبكه شرق البلاد وغربها ولتبكه مضر وكل يمان
ياخاتم الرسل المبارك صنوه صلى عليك منزل القرآن

فبكى الناس لبكائها ، واجهش الناس لاجهاشها ، وصعق المسلمون لتفجعها ولوعتها ، ثم عادت صلوات الله عليها الى منزلها

باكية واعية مضطربة ملتاعة .

وجاءها انس بن مالك خادم رسول الله بعد قليل يعزيها ويهدىء من روعها ويسليها فقالت له :

— كيف مكنك قلبك ان تسلم للارض جثة رسول الله؟

فبكى رضي الله عنه بكاء شديداً وانصرف عنها متفجعاً ملتاعا .

***

وكذلك اختار الله نبيه الى جواره الاعلى ؛ وصعدت نفسه الكريمة الى حيث اريد لها ان تكون مع اصفياء الله وانبيائه ؛ واذا كان الخطب قد اصاب فاطمة بنت محمد في الصميم ، فان حاضنة رسول الله ام ايمن كانت مثلها اضطراباً وتفجعا ، انها لتبكي بكاء مراً ، وانها لتصعق في مكانها فلا تطيق حراكاً ولا حديثا ، حتى اذا عاد لها روعها وسئلت عن بكائها هذا الشديد قالت :

— لقد علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ، ولكني ابكي على الوحي اذ انقطع عنا من السماء

نعم لقد قضى رسول الله وانقطع الوحي ، وستعيش ام ايمن دهراً طويلا ، وستشهد خلافة الصديق وخلافة ابن الخطاب وستبكي

(١) الطبري ، ومسند حنبل

مرة اخرى حين يموت الفاروق ، وتقول في شيء كثير من الجزع والهلع « الآن وهى الاسلام » وستستقبل خلافه عثمان بن عفان ، وقد طال جهدها على انقطاع الوحي ، وشوقها الى اخبار السماء ، حتى يسعى اليها ملاك كريم يقبض روحها الكريمة ، الى حيث تسعد بجوار ابنها محمد بن عبد الله صلوات الله عليه



- ١٣ -

فاطمة وابي بكر وعمر

ثمانية واربعون ساعة مرت بين وفاة رسول الله صلوات الله عليه ، ومبايعة ابي بكر الصديق بالخلافة ، هذه الفترة القصيرة في تاريخ الاسلام ، تعد من اخطر الساعات ، واشدها اثراً وابعدها مصاير ، ولو ان المسلمين اختلفوا فيها ، وتفرقوا شيعاً ، وطووا الارض عصبية وانقساما ، وذهب كل منهم يجتمع الى قبيله وينتظم مع جماعته ، لتبدل وجه الارض وانطفأ نور محمد

ولكنها رحمة الله ساقتهم الى الوحدة سوقاً ، وقضت عليهم بالاجتماع قضاء ، فاذا بهم وبعد سنوات قليلة ، اعز حزب في الارض واقوى قبيل تحت الشمس [1]

ولقد اجتمعت بنو هاشم الى علي في دار فاطمة بعد مبايعة قريش والانصار لابي بكر الصديق بالخلافة ، وقد ابى الامام علي وبنو هاشم البيعة لابي بكر ، لانهم احق بالخلافة ، وقال علي

---

(١) سنعرض لهذه الثمانية والاربعين ساعة في كتابنا المقبل عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وسنتبسط في بحث الامر العظيم تبسطاً نضم اليه كل اقوال المستشرقين وغير المستشرقين في هذا البحث

لابي بكر وهو يحاوره :

– انا احق بهذا الامر منكم ، لا ابايعكم ، وانتم اولى بالبيعة لي ، اخذتم هذا الامر من الانصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله ، وتأخذوه منا اهل البيت غصباً ، الستم زعمتم للانصار انكم اولى بهذا الامر منهم لما كان محمد منكم فاعطوكم المقادة ، وسلموا اليكم الامارة ، فاذاً احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الانصار ، نحن اولى برسول الله حياً وميتاً ، فانصفونا ان كنتم تؤمنون ، والا فبوءوا بالظلم وانتم تعلمون

فقال له الفاروق : انك لست متروكاً حتى تبايع .

فقال علي : لا اقبل قولك ولا ابايعه

فقال له ابو بكر : فان لم تبايع فلا اكرهك

فقال ابو عبيدة بن الجراح يخاطب علياً :

– يا ابن العم ، انك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالامور ، ولا ارى ابا بكر الا اقوى على هذا الامر منك ، واشد احتمالاً واستطلاعا ، فسلم لابي بكر هذا الامر فانك ان تعش ، ويطل بك بقاء ، فانت لهذا الامر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

فقال علي : الله الله يامعشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد

في العرب من داره ، وقعر بيته الى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعون اهله عن مقامه في الناس وحقه ، فالله يامعشر المهاجرين ، لنحن احق الناس به ، لانا اهل البيت ، ونحن احق الناس بهذا الامر منكم ما كان فينا القاري لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المتطلع لامر الشريعة ، الدافع عنهم الامور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله انه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، وتزدادوا من الحق بعداً .

فقال بشير بن سعد الانصاري :

— لو سمعت هذا الكلام الانصار منك ياعلي قبل بيعتها لابي بكر ما اختلفت عليك

ولقد كان الامام رضى الله عنه يتكلم باسم فاطمة في كل ما قدمناه من حوار وحديث ، فهي بنت محمد ، وهي وريثة محمد ، وبقربها من محمد يحتج زوجها وابناها وانسباؤها ، ولما اعتزم الامام مخاطبة الانصار والتحدث اليهم ، وحملهم على معونته ونصرته ، خرج اليهم يحمل فاطمة على دابة ليلا ، فاخذت تدور على مجالس الانصار مجلساً مجلساً ، تطلب النصرة والتأييد والمعونة لعلي ، فكانوا جميعهم يقولون لها :

— يابنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ؛ ولو ان زوجك وابن عمك سبق الينا قبل ابي بكر ما عدلنا به

فكان الامام يقول لهم : افكنت ادع رسول الله في بيته ولم ادفنه ، واخرج انازع الناس سلطانه

وقالت فاطمة : ما صنع ابو الحسن الا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم .

***

ولقد حدث بعد ذلك ان خشي الفاروق الفتنة ورأى في اختلاف العرب ، وردة العرب ، ونشوب الثورة ، في طول الجزيرة وعرضها . ما يحمل المسلمين جميعهم على الاتفاق والوحدة امام العدو القوي ، والخطر الداهم ، فكان لذلك من اشد الناس رغبة في توحيد كلمة المسلمين ، واكتساب بني هاشم الى مبايعة الخليفة الاول ، وقد حاول فعلاً اقتحام بيت فاطمة يحاول بذلك ان يحمل علياً على البيعة ، فلما سمعت فاطمة اصوات الناس نادت باعلى صوتها :

ــ يا ابت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن ابي قحافة

فلما سمع القوم صوتها وبكاءها ؛ انصرفوا باكين وكادت قلوبهم تتصدع واكبادهم تنفطر ، واحزن ذلك عمر بن الخطاب فقال لابي بكر :

ــ انطلق بنا الى فاطمة فانا قد اغضبناها

فانطلقا ، فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما ، فاتيا علياً فكلماه ، فادخلهما عليها ، فلما قعدا عندها ، حولت وجهها الى الحائط ، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام فتكلم ابو بكر فقال :

ــ ياحبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله احب الي من قرابتي ، وانك لاحب الي من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات ابوك اني مت ولا ابقى بعــده ، افتراني اعرفك واعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك من رسول الله ، الا اني سمعت رسول الله يقول

ــ لا نورث ما تركنا فهو صدقة (١)

فقالت فاطمة : ارأيتكما ان حدثتكما حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتفعلان به ؟

قالا : نعم

فقالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول :

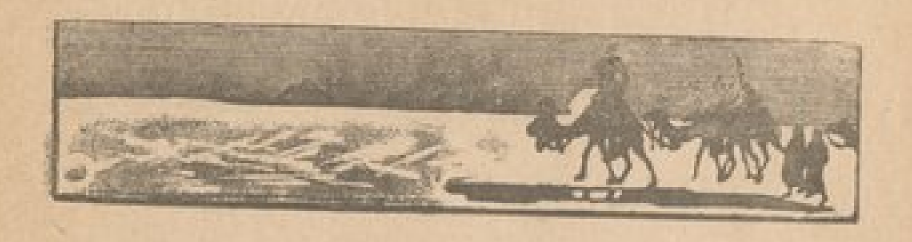
ــ رضا فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن احب فاطمة ابنتي فقد احبني ، ومن ارضى فاطمة فقد ارضاني ، ومن اسخط فاطمة فقد اسخطني

قالا : نعم ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم

«١» وقع بين فاطمة وابي بكر سوء تفاهم بسبب ميراثها من الرسول منعها اياه ابو بكر ، وحجته في ذلك هذا الحديث الذي سمعه من رسول الله

قالت : فاني اشهد الله وملائكته انكما اسخطتماني وما ارضيتماني ولئن لقيت رسول الله لاشكو كما اليه

فبكى ابو بكر بكاء شديداً ، وخرج الى الناس يطلب منهم ان يقيلوه من بيعتهم ، فلم يفعلوا ، وظل الحال على هذا المنوال مدة من الزمن حتى توفيت فاطمة صلوات الله عليها ، فبايع علي ابابكر في المسجد امام الناس ، وارتضى خلافته وصلى خلفه ولم يقل عنه بعد ذلك إلا خيراً .



- ١٤ -

ستة اشهر من الحياة

لقد كان من حق فاطمة بنت محمد ان تكون سعيدة؛ وان تكون مرحة لعوب ، فهي سيدة نساء المسلمين ، وهي فتاة رسول الله صلوات الله عليه ، وهي الى ذلك كله السيدة الكاملة الطيبة الطاهرة ؛ ولكن محبتها لوالدها رسول الله كانت اقرب الى العبادة منها الى المحبة ، فلما توفاه الله اليه ، تحركت عواطفها دفعة واحدة وجاشت لوعتها ، واحتدمت حسرتها ، وراحت تذكر والدتها ، وقد اختطفها الموت في وقت كان رسول الله احوج ما يكون فيه الى معونتها ونصرتها وثبات قلبها ، وتأييدها ، ثم راحت تطلق البصر الى الماضي البعيد ، والى الماضي القريب ، فاذا الموت ينتزع اشقائها واشقيقاتها الواحد بعد الآخر ، ثم اذا به يمشي الى رسول الله فيأخذه بدوره ، واذا هي الفريد الوحيد .

واذا بهذه الاسرة النبوية قد كتب عليها ان تعيش في الدنيا عيش الاشجار العظيمة في الصحاري المحرقة ، تظلل الناس بوارف ظلها ، وهي تصطلي حر الهاجرة وأوارها ، ولو ان القدر انصفهم

ووفاهم اجورهم ، لما سعد احد في الحياة سعادتهم ، ولا هني فيها هناءهم .

***

لقد تولى فاطمة بعد وفاة رسول الله شيء من الذهول عظيم، فكانت لا تفكر الا به ، ولا تذكر الا اسمه ، واخذت على نفسها ان تزور قبره في مطلع النهار ومساءه، تبلل بدموعها ذلك الاديم المقدس ، وتجلس اليه واجمة ، منفطرة القلب، مصدوعة الجسم حتى اذا شفت ما في نفسها من لوعة والتياع ؛ مشت الى منزلها كئيبة لا تلوي على شيء، ولا تنظر الى شيء.

لقد انهك الحزن جسمها النحيل الضعيف ، واضر الاسى بقلبها الرقيق المعذب ، والهفتاه على عهد هؤلاء الاطهار الاعزة ، هذه آخر بنات رسول الله يمشي اليها الموت وهي ما تزال في فجر الصبا، وروعة الشباب ، كما مشى الى اخوتها واخواتها ووالديها من قبلها ، فتمشي الى ربها بائسة حزينة ، ملتاعة باكية ، وقد صعب عليها ان تطيق عن اهلها صبراً ، وعن والديها بعداً

***

وتوفيت فاطمة صلوات الله عليها ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة احدى عشر للهجرة ، وهي بنت ثمان وعشرين سنة ، ودفنت بالبقيع وصلى عليها الامام علي والفضل بن العباس ،

وقد اجمع المؤرخون على انها لبثت بعد وفاة رسول الله ستة اشهر، وذهب بعضهم على انها لبثت ثلاثة اشهر والاول الاصح والارجح.

اما سن فاطمة عند وفاتها فاختلف فيه المؤرخون ايضاً، ذهب بعضهم الى انها توفيت وهي في الثالثة والعشرين من عمرها[1] وذهب آخرون الى انها كانت في السابعة والعشرين او التاسعة والعشرين[2] وذهب غيرهم الى القول بانها كانت في الثلاثين او الخامسة والثلاثين[3] ولكن الاصح هو ماذهبنا اليه قبلاً، من انها توفيت وهي في الثامنة والعشرين من العمر

ويذكر المسعودي في هذه المناسبة حزن علي رضي الله عنه[4] ويذكر غيره كيف انه لما فرغ من جهازها ودفنها، ورجع الى بيته استوحش وجزع جزعاً شديداً، ثم اخذ يقول:

اری علل الدنيا عليّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل

وان افتقادي فاطماً بعد احمد ... دليل على ان لا يدوم خليل

***

«١» اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٨ ـ ١٢٩

«٢» الطبري، ابن الاثير

«٣» عبد البر في الاستيعاب، وتهذيب النووي، والبلاذري في انساب الاشراف

«٤» المسعودي في مروج الذهب

ونختم فصلنا هذا بالكلام عن بنات فاطمة صلوات الله عليهن فنقول :

ان زينباً تزوجت من ابن جعفر ، وان ام كلثوم الكبرى تزوجت من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبعد وفاته تزوجت عوناً بن جعفر بن ابي طالب شهيد معركة مؤته ، ثم تزوجت من محمد شقيقه (١)

وبذهب اليعقوبي في تاريخه الى انه كان لفاطمة ثلاث بنات ، وهو قول ضعيف لم نجد في كتب المؤرخين له تأييداً (٢)

***

واما هالة بنت زينب بنت رسول الله فقد تزوجت من علي رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة صلوات الله عليها ، ولما طعن كرم الله وجهه ؛ تزوجت من احد بني هاشم من حفدة عبد المطلب ، وكان معاوية قد طلب الزواج بها وساق اليها مهراً قدره مائة الف دينار ، فرفضت وتزوجت من نسيبها وفاقاً لنصيحة الامام علي لها وهو على فراش الموت ، وهذا يدلنا على رغبة معاوية في التقرب من اهل البيت بطريق المصاهرة وهو امر لم يوفق اليه .

---

(١) تهذيب النووي ٨٥١

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٣

واما زينب بنت فاطمة فقد اظهرت انها من اكثر آل البيت جرأة وبلاغة وفصاحة ، وقد استطارت شهرتها بما اظهرته يوم كربلاء وبعده من حجة وقوة وجرأة وبلاغة حتى ضرب بها المثل وشهد لها المؤرخون والكتاب



- ١٥ -

اساليب المستشرقين في النقد

لقد ولع بعض المستشرقين في ما يسمونه النقد التاريخي الحديث وما فيه من الوان الاستنباط والتقدير والابتكار يحاولون بذلك في زعمهم سد الثلمة، وتحقيق هذه المجاهيل من الاخبار والاحداث في تاريخ العرب والاسلام

وقد عرضنا في ما سلف من فصول الى اقوال بعضهم وتناولناها بالنقد ورددناها الى اصولها ومظانها ، وسنعرض في هذا الفصل الى الوان كثيرة من هذا الاستنباط والنقد الحديث عند المستشرقين وسيجد قراؤنا في الفقر التي تلي لذة وطرافة ومتاعاً للنفس ، وسيخرجون منها برأي موفق ان شاء الله ، في ما يختص بابحاث المستشرقين ، وبتعلق بنقد الغربيين

ولقد احس قراء كتابنا بهذه الحرارة التي تضطرب فيها ابحاث لامنس في تاريخ فاطمة وغير فاطمة ، ووقفوا على كثير من الطرافة في بحوثه وتعليقاته واستنتاجاته ، وان كان اكثرها يحتاج الى كثير من التحقيق والتعديل والتحوير ، وليست بحوث غيره من المستشرقين لتخلو من هذا النقص الذي اشرنا اليه ، والذي

يقع فيه اكثرهم حين يحاول دراسة التاريخ الاسلامي وفاقاً لاهوائه واغراضه، ولعلنا نحسن صنعاً اذا جلونا هذه الناحية ، ونفضنا اطرافاً من هذه الاساليب الغربية المستحدثة ، يتعرف فيها قارىء كتابنا على هذا الاختلاف (المستطرف) الذي يكثر وقوعه في مؤلفات المستشرقين ، فيجعلها اقرب الى الاقاصيص منها الى النقد الحر الصحيح .

***

ولعل اعجب ما يقع فيه المؤرخ العربي حين يحاول دراسة البحوث الغربية في السيرة وغير السيرة ، هذا الجو الجديد الذي يخلعه المستشرقون على رجالات العرب وابطال الاسلام ، بحيث يصعب على العربي ان يتعرف عليهم، او يتحرى شخصياتهم ؛ لبلاغة التحريف ؛ و كثرة التحوير، ومرد ذلك ان المستشرقين انما يكتبون السيرة واخبار الابطال المسلمين وفاقاً لهواهم واغراضهم، وهم بذلك يساوقون شخصيتهم وعاداتهم ، فيخرج ابن البادية في كتبهم ومؤلفاتهم وهو اقرب الى الحضارة منه الى البداوة،وتخرج سيرة ابن هشام وابن سعد ، وهي ابعد ما تكون عن الاصل، واقرب ما تكون الى التلفيق والتضليل

ولقد كنا نساوق المستشرقين في آرائهم ونظرياتهم الحديثة لو اخرجوا لنا من تحت الدفائن والانقاض آثاراً تبدل وتناقض ما

كتبه ابن هشام وابن سعد وهما اقدم من ارّخ السيرة والاسلام في نشأته الاولى ، ولكن احداً منهم لم يوفق الى شيء من هذا ، وما يزال ابن هشام وابن سعد حجة في ما اورداه من اخبار ، واثبتاه من وقائع ، فمخالفة المستشرقين لهما في هذه الاخبار دون ما حجة ولا برهان ، اقرب الى الدعابة والمزاح منه الى النقد التاريخي الصحيح .

ونضرب الامثال نؤيد فيها ما اثبتناه من اختلاف المستشرقين والتباس ابحاثهم ، واضطراب مناهج النقد عندهم ، لا نفرق في ذلك بين احد منهم فنقول :

يتسائل بعض المستشرقين عن خلق محمد رسول الله وسر تأثيره على ابناء وطنه ؟

فيقول المستشرق دوزي :

« لعل رسول الله – كما كان يلقب نفسه – لم يكن اعلى من ابناء وطنه ، ولكن الثابت انه لم يكن يشبههم ، لقد كان له خيال ، ولم يكن للعرب الا الاقل من هذا ، وكان رجلاً ديناً وكان العرب على نقيض ذلك[1]

ويقول لامنس

« كان محمد رغم معايبه او اذا شئت بفضل معايبه يفتن البدوي

«١» مسلمو الاندلس ج ١ ص ١٨

الذي كان يتعرف نفسه وشخصيته في شخص النبي العربي — كما يدعوه القرآن مسايرة — وفي هذه المطابقة بين محمد وبيئته التي صورته نجد اولاً سر السلطان الكبير الذي كان له على معاصريه » [١]

ويتساءل دوزي عن ميول محمد قبل البعثة فيقول :

« كان محمد سوداوياً صموتاً يميل الى النزهات التي لا انتهاء لها ، والى التأملات الطويلة في الوديان الموحشة [٢]

ويرد الاب لامنس عليه قائلاً :

(كلا ؛ ليس ما يثبت لنا حقيقة هذا الاعتكاف ، فهو لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة وكراهيته المشهورة للنسك) [٣]

ثم ما هي العوامل في بعثة محمد ورسالته ؟

يؤكد نولدكه المستشرق الالماني انها (نوبات الصرع) ويشير الاستاذ دوغيه الى ان هذا بعيد الاحتمال ، لان الحافظة في المصروعين تكون معدومة ، والمعروف ان محمداً كان على نقيض ذلك ، فانه كان يحفظ كل ما كان ينقله اليه الوحي بعد انتهاء النوبة [٤]

---

(١) لامنس ـ مهد الاسلام ص ٥٤و٥

(٢) مسلمو الاندلس لدوزي

(٣) لامنس ـ هل كان محمد صادقاً ؟

(٤) دوغوبه ـ مباحث شرقية ج ١ ص ١ ـ ٥

ويوءكد الاستاذ سبرنغر في دوره انها كانت : (نوبات الهستريا العقلية)[1]

ويرد الاستاذ سنوك هرغرونجه على ذلك قائلاً :

— لندع وهن الاسس التي يقوم عليها التشخيص ، يجب علينا ان نقرّ بان قيمة محمد هي فيما يميزه عن سائر الهيستريين لا في الحالة المرضية التي كانت مشتركة بينه وبينهم[2]

ويختلف المستشرقون حول هذه النقطة اختلافاً عظيماً ، الا ولئك الذين يوءمنون بان محمداً لم يكن كاذباً ولا دجالا وانما كان رجلاً مخلصاً ونبياً اميناً

واذا ما اتى المستشرقون الى مرض رسول الله وموته واسباب ذلك ذهب لامنس يقول :

— ان مرضه كان بسبب جود شاهيته[3]

وينكر الدكتور بينه سانفله ذلك ويقول :

— ان ما كان يراه من روءى كان سببها الجوع ، وانه مات بحمى دامت يومين[4]

«١» سبرنغر — حياة محمد وعمله ج ١ ص ٢٠٧

«٢» مجلة تاريخ الاديان م ٣٠ ص ٥٧

«٣» لامنس — فاطمة ص ٤٤

«٤» (يسوع) الفصل الخاص بمحمد ج ٣ ص ٤٠٥ و٤١٣

اما هوار فيقول ان محمداً مات من التهاب رئوي [١]

ويقول الاب باردو النائب اليسوعي في الصحراء ، ان محمداً مات مسموماً بيد امرأة يهودية [٢]

هذه نماذج من اختلافات المستشرقين ، وتحقيقاتهم في تاريخ الاسلام والعرب ، بحوث فاشلة ، وتحقيقات ضالة ، ودراسات لا اثر فيها للفطنة والعدل وحب التحقيق التاريخي الصحيح

***

اما طريقة لامنس في بحث التاريخ الاسلامي فهي غريبة حقاً، ولقد اثارت كتاباته التي نقلناها اهتمام القراء ولا شك ، لما الفوا فيها من لهجة حماسية غريبة ودعاية قوية جارفة، يروّج لها هـذا الاب العالم في مختلف البلاد الاسلامية واقطارها

لقد كان محمد باعتبار لامنس المثل الاعلى لجزيرة العرب ولكنه مثل اعلى مسـكين لا نلبث ان نعرف ظاهره وباطنه [٣]

ويصرخ لامنس متحمساً : (لماذا جاء القرآن فجأة بقطع التأثير اللطيف الذي اخذ الانجيل يحدثه في ابن البادية) [٤]

«١» تاريخ العرب ج ١ ص ١٨١

«٢» علامات محمد ص ١٧١

«٣» لامنس ـ مهد الاسلام

«٤» 〃 〃 ص ١٩٥

والذي نعلمه ان الانجيل لم يحدث اي تأثير في ابن البادية ، ولقد كانت اليهودية في الجزيرة العربية اشد تأثيراً من النصرانية، وما نقع في التاريخ على برهان واحد او سند صحيح نستطيع معه الايمان بانتشار النصرانية في البلاد العربية ، الا ما كان من بعض اطرافها ، بسبب قربهم من الغساسنة والامبراطورية الرومانية

اما التأثير اللطيف الذي كان يتردد فجأة في الجزيرة فهو نور الوحدانية او الحنفية يشرق فجأة في نفوس بعض المفكرين وهؤلاء كانوا قلة لا سبيل الى تعدادهم ، وقد لا يعدون شيئاً مذكوراً .

ويتأفف لامنس من الاسلام، ويتألم لتبسطه ، وانتشار انصاره ، ويزبد في ألمه ما يحسه من عدم الارتداد فيه [١] ومثل هذه العوارض تنتاب لامنس، وتغمر قلبه ، ليس بطوقه ان يكون معها مخلصاً في بحثه ، اميناً في نقله ، منصفاً في كتبه .

يذهب لامنس الى ان السيرة من اولها الى آخرها مجموعة خدع وتلفيقات [٢] ولكنه لا يلبث ان يناقض نفسه بنفسه ، فهذه السيرة التي هي مجموعة خدع وتلفيقات ، لا ينفك لامنس بأخذ عنها مصادره ، ويعتمد عليها في كتبه، فاذا وجد فيها خبراً وافق

«١» الاسلام هو الدين الوحيد الذي لا مرتدون فيه ، الكونت هنري دو كاستري في كتابه عن الاسلام ص ٢١١

«٢» لامنس ـ فاطمة وبنات محمد ص ١٣٣

هواه ، فهو صحيح ، وان كان الامر بالعكس فالخبر مكذوب وملفق ، و كان من الحق على لامنس ان يرفض اخبار السيرة جملة وان لا يعترف بحرف واحد من حروفها ، ولكنه لو فعل ذلك ، فعلى اي الاسس يبني موءلفاته ، ويروج لتضليله وسخفه ؟

ولما كان الناس يعملون في الغالب على كتمان عيوبهم والظهور امام غيرهم بنقيضها ، فقد نهج لامنس نهجاً لا تحتاج المخيلة فيه الى كبير جهد ، فراح كلما ذكرت الاحاديث والاخبار خلة ممدوحة في محمد ، يوء كد ان محمداً واصحابه كانوا مصابين بالعيوب التي تناقض هذه الخلال ، ولا يترك لامنس هذه الطريقة الا حين يقع على طريقة اشد منها نكراً ومكراً

ونضرب الامثال نفسر فيها طريقة لامنس هذه فنقول : لقد اجمع الموءرخون على ان رسول الله كان يحب الاعتكاف ويتهجد ويصوم ، وانه كان اميناً ، لا يفر من المخاطر ، فذهب لامنس الى عكس هذه كلها ، راح يقول : انه رجل غير امين ، قليل الشجاعة يكره للوحدة ، اكول نوءوم ، وهذا الاسلوب الذي يشبه اسلوب الرهبان في القرون الوسطى ليس من العلم في شيء ، ولا من النصفة والاخلاص في قليل او كثير

ولو اننا توفرنا على تقليد هذا الاسلوب الطريف ، لكان بطوقنا ان ننكر كل ما نقله الينا التاريخ من اخبار واحاديث ، و كان

بالامكان ان ننكر وجود بعض عظماء الناس ، ونقول بكذب الاخبار التي تثبت وجودهم وتلفيقها ، وقد جرب احد ظرفاء الكتاب هذا الاسلوب ؛ فخرج منه بانكار وجود نابليون وغير نابليون من كبار الفرنسيين

وقد كتب لامنس مؤلفاته بهذا الاسلوب الفريد الغريب ، واكثر ما نرى هذا الاسلوب ظهوراً وبروزاً حين يعرض لامنس لكبار الاسلام ومن اكرمهم الاسلام وشرفهم التاريخ ، فهذه فاطمة بنت محمد صلوات الله عليها يقول لامنس عنها :

« انها كانت محرومة من نعم الطبيعة ، قبيحة هزيلة بكاءة بليدة الفهم ، حتى انه لم يتقدم خاطب الى ابيها ، رغم الشرف الذي يطمح به من يصاهر رسول الله ، وان محمداً في النهاية امر علياً بالتزوج منها تبرماً بها »

وهذا علي بن ابي طالب يقول لامنس عنه :

« انه كان مثل فاطمة في استخفاف الناس به ، وانه كان من حيث الشكل قبيحاً ، ومن حيث الفكر محدوداً » [1]

اما عمر بن الخطاب فقد كان في نظر لامنس جندياً بسيطاً بل ادنى مرتبة من الوسط [2]

«١» لامنس ـ فاطمة ص ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٨

«٢» مهد الاسلام ص ٢٧٤

ويتبدل اسلوب لامنس هذا اذا ما وصل الى اعداء الاسلام، فيذهب يحدثنا عنهم بلهجة حماسية، تختلف اختلافاً عظيماً عن لهجته السابقة، ويسبغ عليهم الوان المدح، ويكيل لهم كل الصفات الحسنة، ويذهب في تمجيدهم المذاهب، ولو كان هذا يختلف كل الاختلاف مع التاريخ والمستندات القديمة، وبذلك يخرج لامنس عن مرتبة العلماء المؤرخين المنصفين، ويدخل في زمرة الروائيين الذين يكتبون وفاقاً لاغراضهم واهوائهم، حتى ضاق جماعة الكتاب المؤرخين الاجانب به ذرعاً، فنقدوا آرائه، وبينوا خطأها، وعرضوا لتعصبه، واشاروا لضلاله[(١)]

***

ومن الانصاف ان نذكر بهذه المناسبة ان لامنس قد احاط بكل الاخبار والمستندات الاسلامية في العهد القديم، وانه يرفق تصانيفه جميعها باسناد ضخم يدل على غزارة علمه، وعظيم تبحره وهو على ما يظهر جيد الحافظة، وهذا ما يساعده كل المساعدة في انشاء تصانيفه الكثيرة التي تدلنا على علم وفير ومعرفة وسيعة

ولو كان لامنس يعرض لهذه المستندات التاريخية عرضاً خالصاً صحيحاً لكان الشر هيناً؛ ولكان حتماً عليه ان يبدل آرائه، ويغير مذاهبه ما وقف الاسناد في وجهها؛ وقامت الحجج عليها، ولكن

«١» محمد ــ للكاتب الافرنسي درمنغهام

حضرته لا يسير علمه وفاقاً لروح الانصاف الذي يجب ان يتصف به علماء التاريخ المدققين المخلصين .

لقد اجمع المؤرخون على زهد رسول الله وتقشفه ، وقد روى ابو هريرة ، قال :

— خرج رسول الله من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وكان يأتي على آل محمد الشهر والشهران لا يوقد في بيوته نار ، وكان قوتهم التمر والماء ، وكان رسول الله يعصب على بطنه الحجر من الجوع [١]

ولكن لامنس لا يسلم بزهد الرسول وتقشفه وان كان هذا من الامور التي انعقد عليها الاجماع ، وينكر هذا الخبر كل الانكار ، حتى اذا عثر خلال مطالعاته العديدة بخبر فرد رواه ابن حنبل وفيه ان رسول الله اكل في مأدبة ادبها له الانصار كتفي ضأن [٢] غلب عليه الفرح ، وتولاه السرور ، وراح يقول ان رسول الله رجل اكول ، ونراه في مكان آخر بعيد الكرة على هذا الخبر ، متناسياً كل خبر سواه ، ثم لا يرويه على حقيقته ، بل يعمد الى تحويره وتشويهه والدس فيه فيقول : (ان النبي كان قادراً على التهام ثلاثة من افخاذ الضأن ، وعلى دعمها ؛ بل

«١» ابو الفداء ــ ج ١ ص ١٥٣

(٢) لامنس ــ فاطمة ص ٤٤

قفة من التمر [١]

فيرى القارىء المنصف والحالة هذه كيف زاد لامنس كية الضأن، ثم كيف دعمها بملء قفة من التمر، وكيف خرج قوله هذا يختلف مع الاصل كل الاختلاف، ولا يتفق ابداً مع السند الذي استند له، ولكنه يعود فيفطن الى ضعف الرواية، وكيف ان احداً من المؤرخين لم يروها ولم يقرها، فيذهب يعلق عليها قائلاً :

— اني لتأخذني الريبة في هؤلاء الرواة المتشيعين لقومهم، بانهم لم يغلوا في وصف شاهية ابي القاسم، الا للاطناب في مدح الانصار وذكر جودهم [٢]

واذا كان لامنس يشك في هذا الخبر، فكيف راح يؤمن به في اول الامر، ثم لماذا ذهب يعلق عليه الحواشي والفصول؟

***

وهناك مثل آخر، لقد اجمعت كتب السيرة والتاريخ على ان رسول الله كانت تتورم رجلاه لطول قيامه مصلياً، وقد اثبت القرآن ذلك، قال تعالى :

« ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل »

---

(١) لامنس مهد الاسلام ص ٢٤٣

(٢) « فاطمة ص ٤٤

اما لامنس فينكر هذا ويقول : ان محمداً كان نؤوماً ، وان فكرة احياء الليل مصلياً قد اخذها عن عباد النصارى والنساك [1]

ويزعم لامنس في موضع آخر : (ان ضخامة جسم محمد في الاعوام الاخيرة كانت تحول بينه وبين الركوع والسجود في الصلاة [2]

ولا يشير لامنس الى سند هذا الخبر ، وهو ما يدلنا على انه قد اخترعه اختراعاً ولفقه تلفيقاً

اما عداوة لامنس للعرب الذين اعتنقوا الاسلام ، وارتضوا به ديناً ، فتظهر في كتبه وتآليفه ، وهو لا يسلم بالمزايا التي اعترف لهم بها جميع الكتاب والمؤرخين من عرب وعجم فيقول :

ـ زعموا ان العربي شجاع ؛ بل عللوا نجاح الفتوحات الاسلامية الاولى بهذه الصفات والمزايا الحسنة التى كان يتمتع بها ، وانا اتردد في قبول هذا الرأي ، واقول ان شجاعة البدو من نوع احط [3]

***

ونقف عند هذا الحد في ما توليناه من بحث اقوال المستشرقين

---

(١) لامنس ــ هل كان محمد صادقاً ص ١٩

(٢) 〃 〃 〃 » 〃 〃 ٥٤

(٣) مهد الاسلام ص ١٩١ و٢٤٨

واساليبهم الحديثة في التأريخ للاسلام والمسلمين ، نخرج من ذلك الى القول بان المستشرقين الا اقلهم ، لا يتفهمون الذهنية الاسلامية حتى اليوم ، وانهم بعيدون كل البعد عن الاحسان في ما اخرجوه للناس حتى الآن من بحوث في تاريخ محمد والاسلام ؛ وانه يعوزهم معرفة كثير من العوامل الجوهرية كالزمن والبيئة والاقليم والعادات ، والانصاف والعدل والتحقيق ، لتخرج تآليفهم اقرب الى الاحسان منها الى التضليل والسخف والسرف ، والبعد عن الحقيقة التاريخية التي يجب ان تتحلى بها كتب مؤلفي القرن العشرين

واذا ما اراد المستشرقون ان تكون جهودهم مثمرة مفيدة ، فلينصرفوا عن اضاعتها في محاربة المنقول والاخبار الثابتة ، الى شرح هذا المنقول وهذه الاخبار شرحاً صادقاً ، يفسر لنا نشأة الاسلام الاولى واستطارة شأنه الى كل انحاء المعمور بسرعة وحرارة لم يعرف العالم لها مثيلاً حتى اليوم .

***

ويعرض المستشرقون للمرأة المسلمة فيسوونها بالتراب ، ويقولون ان هذا من الدين والاسلام ، وان حالتها الحاضرة مردها هذه التقاليد الدينية التي حظرت على المرأة حق الحياة ؛ والتي هي من ضروريات العقائد الاسلامية

ولذلك رأيت ان تكون كلمتي الاخيرة عن المراة ، ومـا

تولاها به الاسلام من عطف ورحمة، وتعزيز شأن، ورفيع منزلة، وقد كان العرب يرون فيها بمقتضى بلادهم وتركيب امزجتهم، هناءهم وراحة نفوسهم، ولكنهم من الجهة الاخرى وبسبب طبيعة اجتماعهم ونظام الغارات والسبي المتعارف بينهم، كانوا يرون فيها مذلتهم ولحوق العار بهم، فاغرقوا في التشاؤم بها، حتى ذهب بعضهم الى دفنها حية تسعى، وجاء رسول الله والمرأة تضطرب بين الحالتين فاقر الاولى وقبح الثانية، واعاد المرأة الى عرشها، وجعلها سيدة بيتها، ورد اليها حرياتها، وزادها انصافاً، وبينما كان الرومانيون المتحضرون يتسائلون في مجمع (ما كون) سنة ٥٨٢ ميلادية، فيما اذا كانت المرأة انسان؟ كان رسول الله يرفع صوته قائلاً: (انما النساء شقائق الرجال) وزاد يحاور اصحابه قائلاً:

— ألستم حريصين على دخول الجنة؟ هذه الجنة التي تحرصون عليها هي تحت اقدام الامهات

ومثل هذه الكلمة الخالدة، الجميلة الرائعة، ما تزال حتى اليوم شعلة من الالهام تلهم الملايين من البشر سبيل السعادة البيتية، ومحبة الامهات اللواتي ربينهم صغاراً، وتولينهم بالعطف والخدمة شباباً وكباراً.

ولقد ذهب احد كتاب الفرنجة يقول ان السبب في نهضة العرب الغابرة، هو ما توفر له محمد من تحرير المرأة، فلما عاد اتباعه

الى اخضاعها، اضطربت الحضارة وانهارت ، وعادت الى ركودها القديم ، وجمودها السالف

وهو قول فيه كثير من الاغراق ، لان المسلمين العرب لم يمنعوا المرأة حرياتها ، ولا هم يحاولون اخضاعها ، وما اعطاهـا اياه رسول الله واقره لها القرآن ، من حقوق وحريات لا تزال رهن اشارتها ، وتحت مطلق تصرفها ، وكان احرى بالكاتب الغربي ان يقول ان عدم تعليم المرأة هو السبب في تأخر المسلمين ، ذلك ان المرأة هي ام شباب المستقبل ، وليس بصلح شباب ولا مستقبـل ، والامهات جاهلات غافلات

هذه كلمة اردنا ان نختم بها هذا الكتاب نرد بها على قول قيل ، وتهمة الصقت ، وان كان من الحق ان ينتفع بها المسلمون ؛ ويعملوا على ازالة ما يتهمهم به الغربيون تعزيزاً للمرأة ورفعاً لمقامهـا ، وتغذية للحضارة الاسلامية التي يسعى جميعهم لتكون امراً واقعاً منظوراً .

تم الكتاب

خطأ مطبعي

لقد وقع خطأ في الابيات الشعرية المنشورة على الغـلاف
فالبيت الثاني يجب ان يقرأ هـكذا : لكل اجتماع من خليلين فرقة
وهناك اخطأ لا شأن لها تركناها لفطنة القاري٠



فهرس الكتاب



سلسلة مطبوعات
(الاهلية)